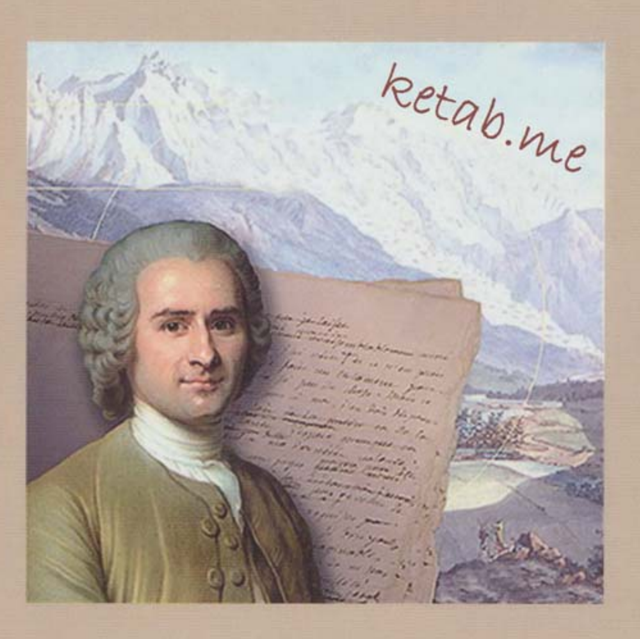
جان ـ جاك روسو

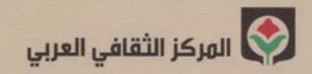
دين الفطرة



نقله من الفرنسية إلى العربية

عبد الله العروي





جان ـ جاك روسو

دين الفطرة

أو

عقيدة القس من جبل السافوا

نقله إلى العربية

عبد الله العروي




المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للكتاب:

Jean-Jacques Rousseau

Profession de foi du vicaire savoyard

1761

الكتاب
دين الفطرة
تأليف
جان - جاك روسو
نقله إلى العربية
عبد الله العروي
الطبعة
الأولى، 2012
عدد الصفحات: 136
القياس: 14.5 × 21.5
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-535-5

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 - 0522 307651
فاكس: +212 522 305726
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 - 01 352826
فاكس: +961 1 343701
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

تقديم

لم أختر اعتباطاً النص الذي يحمل في الأصل عنوان **عقيدة قس من جبال السافوا** لنقله إلى اللغة العربية. يخضع هذا الاختيار لخطّةٍ نقدية ذكرتها في مناسبات عدّة. سبق لي أن قلت إن الفكر الغربي لم يقترب من تمثّل الفكر الإسلامي إلا مرة واحدة، وذلك أواسط القرن الثامن عشر الميلادي. قبل ذلك التاريخ كان الحاجزُ المعتقدَ الديني وبعده كان المانع سدّ الاستعمار. التمثّل هنا لا يتعدى الفكر النظري الصرف ولا يمسّ النظم أو الأخلاق أو العادات. نستنتج أن المقارنة بين الفكرين، الغربي والإسلامي، لا تستقيم منهجياً ولا تفيد عملياً، إلا في إطار زمني محدّد، أي قبل الثورة التي زعزعت أركان أوروبا في نهاية القرن المذكور، وبكيفية أدقّ قبل ما سمّي باكتشاف الزمن، لا في بُعْدَيه الفلكي والنفساني، بل في بُعده المادي الملموس، عندما اتّضح بالتجربة أنّ الجمادَ، كالحيّ، له تاريخ. بعد هذه المرحلة الفاصلة أصبح من العبث التنقيب عن توافق في الجزئيات، حتى وإن تطابقت تماماً التعابير والألفاظ، بين مفكر غربي وآخر إسلامي. لم تعد المفردات (عقل، وجدان، بداهة، فرد، حق، عدل، إلخ) تحمل المضمون نفسه.

ما الفائدة إذن لنا، قرّاء العربية، من نقل نص جان-جاك روسّو؟ يضعه الغربيون في سياق فلسفة الدين من ديكارت إلى كنط. فتنصبّ التحليلات على ما أخذ المؤلّف عن الأول وما أخذ عنه الثاني. المفيد بالنسبة لنا ليس هذا الجانب، بل القيام بتجربة ذهنية معيّنة تساعدنا في آن على فهم كتاب روسّو وكتابات إسلامية شبيهة به. تطبيقاً لما قررت سابقاً عن منهجية المقارنة، وإثباتاً لوجود سقف مفهومي لموروثنا الفكري، يفيدنا كثيراً أن نتخيّل «إماماً جبلياً» مرّ بتجربة وجدانية مماثلة للتي يحدثنا عنها روسّو، عايش مجتمعاً قلقاً مضطرباً كالمجتمع الذي يصفه لنا، فيرسم لنفسه، كما فعل روسّو، عقيدةً بسيطة، بيّنة، صادقة، توفّق بين العقل والوجدان، تضمن للفرد الطمأنينة وللمجتمع الوحدة والاستقرار. إذا اتّضح في ذهننا هذا المعيار أمكننا الحكم بعمق وموضوعية على المشاريع الإصلاحية التي ظهرت عبر القرون في مجتمعنا الإسلامي والتي تقترن بأسماء الغزالي، ابن رشد، محمد عبده، محمد إقبال...

*

وُلد جان-جاك روسّو سنة 1712 في مدينة جنيف، عاصمة المذهب البروتستانتي الكلفيني لأسرة محترمة من الصناع. نشأ في محيط متواضع متشبّث بمُثُله الجمهورية، بعقيدته الإصلاحية وبأخلاقياته الصارمة. ظلّ روسّو طول حياته فخوراً بكونه مواطناً في مدينة حرّة مستقلة. سنة 1728 غادر وطنه قاصداً منطقة السافوا المجاورة. احتضنته سيدة كانت مكلّفة بتشجيع

البروتستانت على الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. قبِل روسّو الشاب، الفقير، اليتيم، أن يتخلى عن عقيدة أجداده في ظروف أوضحها بإسهاب في كتابه الشهير **الاعترافات**. تبيّن له فيما بعد أن الكاثوليكية النظرية التي لقّنها آنذاك ليست عقيدة الجمهور. كما أن السلوك الذي كان الغالب في الأسرة التي انضمّ إليها في السافوا كان أكثر تسامحاً وانفتاحاً من المعتاد عند عامّة الكاثوليك. بعد أعوام من التردّد والتشرّد في إيطاليا ثم فرنسا التحق سنة 1742 بالعاصمة باريس حيث تعرّف على جماعة «الفلاسفة» (كونديك، ديدرو، گريم، دولباخ). تأثّر بأفكارهم، شارك في مشروعهم التنويري الداعي إلى دحض الأوهام وهدم الأصنام حتى تتحرّر العقول والقلوب. أثناء هذه الفترة اشتغل أساساً بالتأليف والتنظير في مجال الموسيقى، فكان يُعرف بروسّو الموسيقي قبل أن يكنّى بروسّو الفيلسوف. بعد عشر سنوات من معاشرة الفلاسفة افترق عنهم لدوافع لا تزال إلى اليوم موضوع جدال بين الدارسين. سنة 1754 قبل أن يُهدي كتابه عن أصل التفاوت بين البشر الذي أعلن فيه ميوله الديمقراطية، الأمر الذي عمّق العداوة بينه وبين فولتير، إلى حكام مدينة جنيف، عاد إلى وطنه وإلى حظيرة الكنيسة الكلفينية، فاسترجع كل حقوقه المدنية. ولم يعد يعرّف نفسه إلا بكلمة مواطن من جنيف.

كان فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون متحررين فكرياً وأخلاقياً، لكنهم كانوا محافظين اجتماعياً وسياسياً. هدفهم الإصلاح من فوق، ثورةٌ استباقية حتى لا تباغتهم ثورة شعبية

عارمة. ينتظرون إذن أن يتحول الحاكم المطلق إلى مُصلح يتحرر من قيود الكنيسة ويطبّق برنامجهم التنويري. أما روسّو فإنه ظلّ وفياً لأصوله الوطنية، جمهوري النزعة، شعبي الهوى. بعد سنوات من العيش محاطاً بكل مظاهر الترف والإسراف والتفكك الأخلاقي، عادت مقوّمات مجتمع جنيف، كما أوحى بها الموقع الجغرافي وكما نظّر لها الآباء الروحيون، من وفاء ووحدة ومساواة وقناعة وتقشّف وعدل وإنصاف، إلخ، لتتحكّم من جديد في فكر روسّو. فبدا له أن العلوم والفنون، إذا ازدهرت بدون ضابط، ضارّة أكثر مما هي نافعة، وأن تفضيل المعرفة على السعادة غيّ وغرور، وأن الاعتماد على منفعة الفرد لتحقيق الصالح العام خطأ واضح. فكتب من قلب عاصمة العلم والذوق بأسلوب عنيف وبليغ، ينتقد الثقافة والتكلف وينتصر للعفوية والبراءة. كانت ضربةً في صميم البرنامج التنويري، لكن بعض الفلاسفة أُعجبوا بأسلوب روسّو وفضّلوا أن يروا في العملية تطبيقاً لمبدأ «خالف تُعرف». مفارقةٌ بليغة، هكذا نعتوا خطاب روسّو. شاركهم في هذا التأويل الأرستقراطيون. افتُتنوا بالمؤلف دون أن يدركوا أنه كان يعبّر عن ميول عميقة في جمهور غير المثقفين، وأن الشعب، على العموم، لا يأبه للعلم والفن بقدر ما يهتم بالعدل والمساواة وبساطة العيش وتلقائية العلاقات الاجتماعية.

هل كان الفلاسفة الماديون تقدّميين وكان روسّو رجعياً؟ هل كانوا محافظين وروسّو ثورياً؟ انقسم القرّاء والنقّاد إلى يومنا هذا

حول هاتين المسألتين. قليلون من يرون أن روسّو وخصومه وجهان متلازمان للثورة الزاحفة.

*

ميّز روسّو بين إنسان الطبيعة (كما خرج من يد صانعه) وإنسان الإنسان كما شكّله المجتمع بوساطة التربية والتعليم، عبر نشر العلوم وتلقين الفنون. سعيدٌ بطبعه، شقيٌّ بثقافته، نجاته في نبذ الزخارف المكتسبة والعودة إلى براءته الأولى. الإسراف في مجال المعرفة والذوق لا يزيد الإنسان إلا انسياقاً للشهوات وتباعداً عن أخيه الإنسان. المطلوب ليس ترميم ما فسد، بل الإعراض كلياً عما سبق، وتشييد المجتمع مجدداً على أساس ما يوحي به الطبع والوجدان. لا مناص إذن من التخطيط لتربية جديدة بكل معنى الكلمة.

هذا هو مشروع **أميل أو في التربية**، الكتاب الذي نشره روسّو سنة 1762. يمثّل مرحلة تتوسط بين مرحلة هدم اتخذت شكل نقد الثقافة (**خطاب حول العلوم والفنون**، 1751) ونقد السياسة (**خطاب حول أصل التفاوت بين البشر**، 1755)، ومرحلة تشييد وبناء تجسّدت في كتابَيْ **أميل** و**العقد الاجتماعي**، 1762. جاءت عقيدة القس في الجزء الرابع من كتاب **أميل** المكوّن من خمسة أجزاء. يأتي إذن نقاش المسألة الدينية متأخراً في مسيرة أميل التربوية. لا يكلّمه أستاذه عن الخلق والخالق إلا بعد أن يتجاوز سن الخامسة عشرة. يتوسّع المؤلف في تبريره هذا الاختيار المخالف للمعتاد. عقيدة فطرية بسيطة سمحة خالية

من كل لغز منافية لكل تعصّب، لا تترسّخ إلا في فؤاد من هُذّب لهذا الغرض بالذات، كما أن النظام الجمهوري الديمقراطي لا يستمر إلا إذا قام على تعاقد بين أفراد تربّوا منذ الطفولة ليكونوا مواطنين حقاً. واهمٌ من يظن أن الإصلاح قد يأتي من فوق. هذا ترميم يعالج الأعراض فقط. لا مناص من خلق مستأنف حتى يتسنّى بناء مجتمع جديد ونشر عقيدة جديدة.

لا يُفهم النص المعرب هنا فهماً سليماً إذا فُصل أولاً عن النص المتمم له، أي **العقد الاجتماعي**، وثانياً عن باقي كتاب **أميل**. هذا رغم أن المؤلف قرّر منذ البداية طبعه منفرداً، ظناً منه أن معاصريه أكثر استعداداً لقبول إصلاح ديني منهم للمصادقة على تحليلاته السياسية.

ظن روسّو خطأً أن القرّاء، لا سيما المسؤولين، سينخدعون بسهولة ويفصلون **العقد الاجتماعي** عن **عقيدة القس**، وأن نقده اللّاذع للفلسفة المادية سيكفّر في عينهم عن أفكاره الثورية. لم ينخدع بذلك أحدٌ. غضب عليه الفلاسفة لإيمانه الديني وانتقم منه أنصار السلطتين، الدينية والمدنية، لثوريته. أدانه الفلاسفة على لسان فولتير، والكاثوليك على لسان أسقف باريس والبروتستانت على لسان رئيس كنيسة جنيف. اضطرّ إلى مغادرة فرنسا حتى لا يودع السجن. فلجأ إلى سويسرا تحت حماية ملك بروسيا فريدريك الثاني. وعد السلطات الدينية السويسرية أنه لن يخوض مستقبلاً في مسائل العقيدة، ورغم هذا لم يلقَ سوى العداوة والبغضاء. قضى سنواته الأخيرة من 1763 إلى 1778

لاجئاً، وحيداً، مشرداً، نادماً على تخلّيه عن صناعة أبيه وتعاطيه مهنة الكتابة، حتى ظن أن هناك مؤامرةً عامة غايتُها النيل من سمعته وتشويه أفكاره أثناء حياته وحتى بعد وفاته. حاول توضيح مواقفه كيلا يتلاعب بها أعداؤه من «الزنادقة والمتعصبين»، فكتب رسائل كثيرة، خاصة وعامة، ثم ابتدع أسلوباً جديداً في محاسبة النفس، وذلك في مؤلَّفه الشهير **الاعترافات** (1770) وفي كتاب **حوارات أو جان-جاك يحاكم روسّو** (1776)، قبل أن يجد قدراً من الاستقرار والراحة شهوراً قليلة قبل وفاته كما يشهد على ذلك آخر مؤلفاته **متاهات السائح المتوحد** (1778).

*

لا يمثّل النص المعرب عقيدة بالمعنى المألوف عندنا. هو بأحرى خطاب يلقيه قس من جبال السافوا على مسامع شاب فقد الإيمان وكاد يتحوّل إلى صعلوك زنديق بسبب المآسي التي عاشها. يسجل الشاب الخطاب ليتأمله على مهل ثم يبعث نسخة منه لمواطن له كان مكلّفاً بتربية تلميذ يدعى أميل. إذا افترضنا أن روسّو، مؤلف كتاب **أميل**، هو الأستاذ المذكور في الكتاب، فهو لا يفعل سوى نقل خطاب القس، كما توصل به من مواطنه الشاب، ويلحقه بمؤلَّفه **أميل** كوثيقة تربوية تساعده على تهذيب ضمير تلميذه أميل عندما يتقدم في السن ويصبح قادراً على فهم دقائق الجدال الفلسفي والديني. لماذا كل هذه الحواجب والستائر، والحال أن تجربة القس ورفيقه هي بالحرف تجربة روسّو كما يرويها مفصلةً في كتاب **الاعترافات**؟ قد تكون وسيلةً

ساذجة للتنصل من المسؤولية، فتطرح مسألة الصدق والصراحة، وهي أساسية في أخلاقيات روسّو. وقد يكون الدافع أعمق. ربما هدف روسّو المؤلف هو أن يترك مسافةً ما بينه وبين عقيدة القس. هذا ما نستشفّه من الجدال الدائر بين من يستنير بالوحي ومن يتّكل على نور العقل وحده (انظر المقطع 127). واضحٌ من صيغة النقاش أن روسّو لا يتّفق تماماً مع أي من المتجادلين. وأخيراً قد يكون أنه شعر باختلاف أو تناقض بين هذا النص ونصوص أخرى، دينية أو غير دينية، صدرت له أو مُعدّة للصدور. نكتفي بذكر نقطة واحدة حيّرت الدارسين إلى يومنا هذا، تتعلق بحرية العقيدة: فهي عند روسّو مطلقة عقائدياً ومقيّدة سياسياً، كيف التوفيق بين الأمرين؟ على أي حال لم يُجدِ شيئاً كل هذا الاحتراز. أجمع القرّاء، أيام المؤلف وبعده، أن عقيدة القس هي عقيدة روسّو، بما فيها من التباس وغموض.

تساءل الباحثون عن شخصية القس، حقيقية هي أم خيالية؟ أكبر الظن أنها مركبة من سمات استعارها من قساوسة ورهبان عرفهم روسّو في السافوا وفي إيطاليا. أهمّ من هذا الجانب التركيزُ على الصفة الجبلية. يقول روسّو في مواضع كثيرة إنه يعتبر أن **عظة الجبل** كما جاءت في الإنجيل هي لبّ المسيحية التي يرتضيها. ويؤكد هذه الإشارة المدخلُ الطويل، الذي أعرضنا عن تعريبه، والذي يروي فيه ظروف لقاء الشاب اليائس الثائر مع القس المتواضع الودود الذي لم يتصرف معه كباقي القسوس. فسأله عن السر الكامن وراء هذا التصرف المتميّز.

فوعده القس أنه يوضح له ذلك رأساً لرأس في وقت مناسب ومكان مناسب:

«لم نرض أن يتأخر موعدنا عن الغد. كنا في فصل الصيف. قمنا من الفراش مع بزوغ الفجر. قادني القس خارج المدينة إلى ربوة عالية تشرف على مجرى نهر البو. كنا نلمح مياهه تسيل بين ضفتيه الخصبتين وفي الأفق نرى سلسلة جبال الألب الشاهقة تتوّج هذا المنظر الخلاب. أشرقت الشمس فلامست أشعتها السهول، وانعكست على وجهها ظلالُ الأشجار والتلال والمساكن المجاورة، مُمدّدة منمّقة بتلألؤ مختلف ألوان الطيف. اكتسى المشهد بهاء أروع لوحة تبصرها عين إنسان. كما لو كانت الطبيعة تناولنا في أزهى حلّة المتن الذي سنتكلّف أثناء حوارنا شرحه والتعليق عليه. تأمل رفيقي الوديع هذا المنظر، طويلاً وفي صمت، ثم قال:»

أي عنوان لهذا المقطع أنسب من: كيف تكلم القس؟ وماذا قال؟ ماذا كانت عظته الجبلية؟ في قسمها الأخير تتحول إلى خطبة وعظية تختتم بكلمة آمين. لكن في معظمها تكتسي شكل رسالة تناقش نقطةً نقطة، بأسلوب منطقي مركز إلى حدّ الغموض، جل المسائل التي اعتدنا على قراءتها في كتب المتكلمين من كل الملل. الرسالة مجزأة إلى قسمين: الأول يتطرق للعقليات والثاني للنقليات حسب التعبير الإسلامي. وهذه التجزئة هي الوحيدة التي يذكرها المؤلف. لذلك فضّلنا ترك

الأمر على حاله من دون أن نُقحم في النص عناوين فرعية وإن اقتضاها السياق.

أحصينا ثلاثين موضوعاً تعرّض لها الكاتب نذكرها فيما يلي مصحوبةً بأرقام المقاطع التي تخصّها:

1	تجربة القس	1–11
2	عجز الفلسفة	12–18
3	الإنسان وسط الكون الحس. الوعي. العقل	19–32
4	الحركة والسكون	33–40
5	نظام الكون: الروح والمادة	41–49
6	الخالق وصفاته	50–52
7	الإنسان سيد الكون	53–56
8	ثنائية الإنسان	57–66
9	الشر من الإنسان	67–69
10	عدالة الرب	70–73
11	الثواب والعقاب	74–75
12	الجنة والنار	76–78
13	الخالق لا يدركه العقل	79–82
14	ضوابط الأخلاق	83–89

نستطيع أن نلخص مقولات روسّو في جملة واحدة : الإيمان

في خدمة النفس، الدين في خدمة المجتمع، المجتمع في خدمة الفرد. وواضح أن هذا المنطق يصدم الفلسفة والكنيسة معاً، لكنه في الوقت نفسه قابل للتوظيف من قبل كلا الطرفين.

فردانية روسّو مطلقة إذ يقول إن الفرد لا يسعى إلا لضمان سعادته وأعلى صور السعادة هي رضى النفس على ذاتها. هذا هو أهم أركان الحداثة. لكن تعامله مع الدين كظاهرة اجتماعية سياسية يمثّل أيضاً ركناً أساسياً من الحداثة نفسها. تلتقي عند روسّو النظرتان، الفلسفية والشعبية (العامية) للدين، لأنه كان بحق فيلسوف العامة.

نقرأ في ختام خطاب القس كلمة آمين. إذا توقفنا فعلاً عند الكلمة وطوينا الكتاب أخطأنا المغزى. علينا أن نتابع قراءة مؤلف أميل. فنجد ما يلي:

«نسختُ هذا الخطاب لا ليكون ضابطاً لما يجب أن نستشعره في مجال الدين، بل كمثال على الأسلوب الذي يخاطب به الأستاذ تلميذه إن ظل وفياً للمنهج المقترح في مؤلَّفي هذا. بما أننا نرفض الخضوع لأية سلطة بشرية، لا نصادق على أية عقيدة متوارثة في بلد مولدنا، كل ما يمكن أن يهدينا إليه نور العقل في حدود الطبيعة هو دين الفطرة. لذا أقف عنده في مخاطبة الشاب أميل. إن قُدّر له أن يعتنق ديانة أخرى فليس من حقي أن أرشده إليها. عليه أن يختارها هو لنفسه.»

هذا تعليق يفتح باباً جديداً للجدال حول مضمون ومدى

مفهوم التربية الدينية عند روسّو. نسجّل فقط أن هدفه المعلن من التربية هو تحرير الذهن من الأفكار المسبقة والأحكام المتوارثة. هذه، في نظر الفلاسفة، هي تعاليم الكنيسة. يوافقهم روسّو في هذه النقطة، لكنه يذهب أبعد منهم ليقول إن المسبقات التي يجب تحذير النشء من تبنّيها هي أيضاً ما بثّه الفلاسفة الماديون كحقائق مقررة مع أنها ليست كذلك. هذا موضوع الجزء الأول من العقيدة إذ يبرهن روسّو على أن التوقف واجب في كثير من المسائل (الخلق، السكون، الغريزة، إلخ) التي فَصَل فيها الفلاسفةُ بكيفية تعسّفية، كما أن التوقف واجب في مسائل أخرى (الوحي، الرسالات، الجنة والنار، إلخ) ردّدها منذ قرون أرباب الكنائس. القس أقل اطمئناناً لما يقرر في الجزء الثاني منه في الجزء الأول، فيكثر من التحذيرات والعبارات الاحترازية. لكن في الأمرين معاً يطلب من سامعه أن يعتبر كل مقولاته فرضياتٍ أوحت له بها تجربة حياته. على السامع أن يحفظها ليمحّصها فيما بعد على ضوء تجربته هو، مرجعُه في كل حكم ضميرُه، نور وجدانه الذي عمل القس على تصفيته من شوائب الاتّباع والتقليد حتى يظل بريئاً، نقياً صافياً كما خرج إلى الوجود، وحتى ينعكس فيه، مباشرةً وبصدق، خطابُ الصانع الأول.

*

اعتمد روسّو على مراجع رومانية ومسيحية. منذ صباه وهو لا يفتأ يطالع فلوطارخوس والتوراة والإنجيل. لهذا السبب حاولت أن أحافظ على النكهة «الكلاسيكية»، بالمعنى الغربي،

للنص. فامتنعت عن «تعريبه» أو «أسلمته»، بل اكتفيت بنقله إلى العربية بصفة محايدة. كلّفني ذلك بعض الجهد إذ موضوع الكتاب «تقليدي» بالنسبة للقارئ العربي، المسلم وحتى غير المسلم. يقرأ ردود روسّو على الفلاسفة الماديين فيستحضر في الحين الغزالي وكتابه **تهافت الفلاسفة**. يقرأ نقده لليهودية والنصرانية فيتذكر توّاً ابن حزم وكتابه **الفصل**. يقرأ تخيّله فرداً يعيش وحيداً في جزيرة منعزلة فيسترجع حالاً ابن طفيل **وقصة حي بن يقظان**. يقرأ كلامه عن دين الظاهر ودين الباطن، عبادة الجوارح وعبادة القلب فيستذكر في الحين أقوال ابن رشد ومحمد عبده ومحمد إقبال. هذا نشاط ذهني عادي غير متعمد. إلا أنه مضرّ، إن لم يقاوم بحزم، لما يصاحبه من تسطيح وابتذال للنص المقروء. ينتُج عنه إغفال نقطة أساسية نبّهنا عليها سابقاً، وهي المَنْظَر قد يكون واحداً لكن المنظور مختلف. المنطلق عند روسّو هو وجدان الفرد الحر المستقل. هذا المفهوم، الذي هو عماد الفكر الحديث، غائب عند كل مَن ذكرنا من مؤلفي الإسلام. يضمّن معاني جديدة لألفاظ عادية مثل إيمان، تصديق، بداهة، إخلاص، إلخ.

توجد مؤشرات كثيرة على أن روسّو لم يكن يحمل أي عداء مبدئي للديانة الإسلامية. بل أكبر الظن أنه ربما أدرك أن مفهوم دين الفطرة أقربُ إلى عقيدة الإسلام منه إلى اليهودية أو المسيحية. لكن من الواضح أن معلوماته حول الإسلام كانت جدّ محدودة، أغلبها مأخوذ من مونتسكيو الذي اعتمد بدوره على

كتابات الرحالة الأوروبيين الذين تجولوا في الأراضي العثمانية والصفوية.

أهملت عمداً هذا الجانب (روسّو والإسلام أو الإسلام وروسّو) الذي يمثّل جزءاً من البحوث الخاصة بالاستشراق (كيف تعرّف الغرب على الإسلام) أو الاستغراب (كيف اكتشف المسلمون الغرب)، لأنه يلهي عن التفكير في المسألة الجوهرية المشار إليها بداية هذا التقديم.

المهم بالنسبة لنا هو السؤال الذي طرحه روسّو على نفسه منذ أن حلّ بباريس وعاشر الفلاسفة العلمانيين: ما هو شكل التعبد المناسب لمجتمع يعتقد أنه وجد في علم الماديات بديلاً كافياً شافياً عن الدين التقليدي؟ إن كنا نشعر صادقين أننا، بكيفية ما، في وضع مماثل، علينا أن نطرح على أنفسنا السؤال ذاته في إطار ظروفنا الخاصة. لا يجب أن نقرأ روسّو من خلال منهجية الإصلاح الإسلامي، حتى الأكثر انفتاحاً. كما لا يفيد أن نحلّل الوضع الإسلامي، الماضي والحاضر، على ضوء منهجية روسّو.

ما يقوله روسّو عن الإسلام هامشي، بقدر ما هو هامشي ما يطابق من كلامه خطابَ المصلحين المسلمين.

*

الغريب في أمر روسّو، الذي نادى بالعودة إلى براءة الطبيعة ونبذ زخارف الثقافة، أن علماء الطبيعة (الفيزيائيين) لا يلتفتون إليه اليوم ولا يجدون في نقده للعلم ما يستحق الردّ. في جوار وطنه جنيف شيّد الاتّحاد الأوروبي تحت الأرض مخبراً ضخماً

لاستعادة الظروف التي نشأ فيها الكون، وبالتالي لمعرفة كيف تتحول اللّامادة إلى مادة والمادة إلى لامادة. قوله ان انسلال الوجود من العدم والعدم من الوجود لغز لا يدرك ليس بالبداهة التي تصورها (انظر المقطع 72). تُصرف آلاف المليارات من الدولارات لتشييد وتسيير هذا المخبر، رغبةً في المعرفة المحضة، ومثله موجود في أمريكا، في وقت تتكاثر فيه المجاعات والكوارث الطبيعية. إسراف وأيّ إسراف يدلّ على أن دعوة روسّو لم تؤثر.

بالمقابل كم هو محبوب عند علماء الاجتماع! المؤرخون، الأنثروبولوجيون، اللغويون، منظّرو السياسة، نقّاد النصوص، الموسيقاريون، إلخ، كل هؤلاء، وبعضهم لم يختر مهنته إلا إعجاباً بروسّو، يُشيدون بعبقريته وبثراء آرائه الرائدة في مجالات عدة.

راهنية روسّو؟ سؤال خطابي إذ تتوالى على الكاتب فترت إعجاب مفرط وفترات إهمال أو نقد لاذع. في لحظتنا هذه، بعد أن انهار النظام الشيوعي وتبدّد حلم المساواة بين الشعوب والطبقات والأفراد، بعد أن غزت المعمورة أخلاقياتُ الرفاهية والمتعة، بعد أن انحصر الإبداع في اختبار ما لم يسمع به من قبل مهما تكن آثاره السلبية على النفوس والأبدان، يبدو أن خصوم روسّو من الفلاسفة أقرب إلى روح العصر.

لكن إذا لم يكن هو في قلب الحداثة كما نعيشها اليوم، راضين أو غاضبين، فإنه إذن غير المقصود بالانتقادات الموجّهة

إليها. دعا إلى التقشف والتعفف، إلى ضبط طموح العقل البشري، إلى تفضيل القناعة وطمأنينة النفس على المغامرة والقلق، إلى مسايرة الطبيعة لا معاكستها، معالجتها لا استنفادها، أولا نجد صدى لكل هذا عند الذين يبحثون عن نظام عالمي بديل؟ وفي ميدان التربية تحذيره من الاعتماد المطلق على الكتب أولا يلتقي مع مخاوف أعداء الحياة الافتراضية التي تغذيها وسائل الإعلام الحديثة؟

قد يطول الجدل حول الحي والميت، الخصب والعقيم، في فكر روسّو، كما هو الحال بالنسبة لكتّاب آخرين من مستواه. ما لا نقاش فيه هو أنه شخصية وأية شخصية، أسلوب وأي أسلوب، أسلوب ملتصق بشخصية. المثير فيما كتب ليس المقال بل القائل وصفة القول. مَن القائل؟ ضمير الفرد الحر. صفة القول؟ الصدق والصراحة. شرط نافل في مجال العلم، لكن فيما يخص الإيمان، أي معنى لقول غير صادر عن قلب صادق؟

كلام روسّو في **عقيدة القس الجبلي** ليس عن الدين بقدر ما هو عن الهمّ الديني. وهذا الهمّ عاد بعد أن غاب، وإن قُدّر له أن يغيب مجدداً فهو لا محالة عائد ما دام الإنسان إنساناً.

تنبيه: كل ملحوظة مسبوقة بنجمة (*) هي من قلم المؤلف وكل ملحوظة مرقمة هي من المعرب.

عقيدة جان ـ جاك روسّو[1]

1 لن أخاطبك، ولدي، كما لو كنتُ عالماً متبحراً أو مجادلاً بارعاً. لست من كبار الفلاسفة ولا يهمني أن أكون واحداً منهم. إلا أن عقلي سليم وأميل دائماً إلى جانب الحق. لا أريد أن أجادلك، بل لا أطمع في إقناعك. هدفي الوحيد أن أعرض عليك، بكل بساطة، ما يكنّه قلبي. ما أطلبه منك، يا ولدي، وأنت تنصت إلى قولي، هو أن تراجع قلبك. إن أخطأتُ، فعن حسن نيّة، ولا داعي إذن إلى مؤاخذتي. وإن أخطأتَ أنت، تبعاً لي، فلن يلحقك ضرر كبير. لكن إن أصبتُ، فبما أن عقلنا واحد وأن المصلحة في اتّباع العقل، لماذا لا تفكر مثلي؟

2 ولدت فقيراً لأب فلاح. وكان المتوقع أن أكون فلاحاً

---

(1) لكي نتحقق من أن العقيدة المعروضة هنا باسم القس الجبلي هي بالفعل عقيدة روسّو يمكن الرجوع إلى نصوص أخرى للمؤلف:

La nouvelle Héloïse, 1758
Lettre à Monseigneur de Beaumont, 1763
Lettres écrites de la montagne, 1764
Les confessions (livres 11 et 12), 1770
Dialogues, Rousseau juge de Jean-Jacques, 1776.

مثله. لكن بدا لأهلي أن أكسب قوتي كقس. فوجهت إلى الدراسة. كان واضحاً أن الدافع لهذا الاختيار، بالنسبة لوالدي وبالنسبة لي، لم يكن البتة الصلاح أو الحق أو المنفعة، بقدر ما كان امتلاك ما يلزم لأصبح عضواً في الكنيسة. تعلمت ما أُريد لي أن أتعلم، نطقت بما أريد لي أن أنطق به، تعهدت بما أريد لي أن أتعهد به. فأصبحت قساً. لكن لم ألبث أن شعرت أني التزمت بما هو فوق طاقتي، أعني التنكر لطبيعتي الإنسانية.[1]

3 يُقال لنا إن الضمير وهمٌ من الأوهام التي نَتَوارثها دون فحص. لكن تجربتي تثبت أن ضميرنا لا ينفك يطيع أوامر الطبيعة ويعاكس كل قوانين البشر. يُلحّ المجتمع على حظر هذا الفعل أو ذاك، لكن إن كان المحظور مما تبيحه حقاً الطبيعة، وأحرى إن كان مما توصي به، فلا يوبخنا الضمير إلا توبيخاً خفيفاً. أيها الشاب الطيب، لم تلهب بعدُ الطبيعة غرائزك، فعش طويلاً هذه الفترة السعيدة حيث لا تُصغي إلا لنداء البراءة. تذكّر دائماً أن الوقاية من الطبيعة تضرّ المرء أكثر من معاكستها. يجب أن نعرف كيف نقاوم لكي نتعلم متى يتأتّى لنا أن نطيع دون إجرام.

4 منذ صباي احترمت الزواج واعتبرته أولى المؤسسات

---

(1) الإشارة إلى التبتل المطلوب من القسوس الكاثوليك.

الطبيعية وأشرفها. زهدت في ملذاته باعتناقي مهنة القس، لكني قررت أن لا أنال أبداً من قداسته. رغم آثار التربية وسنوات الدراسة كان نور الفطرة لا يزال يتحكم في ذهني. لم تفسده مغريات الدنيا بسبب استقامة وبراءة الحياة التي كنت أعيشها. كما أن ضعف الموارد أبعدني عن الشهوات التي تزيّن الرذائل.

5 قراري هذا هو الذي تسبب في هلاكي. احترامي لفراش الغير كشف زلتي. فحلّ بي العقاب. قبض عليّ، مُنعت من مزاولة مهمّاتي، وأخيراً طُردت من الكنيسة. كنت ضحية تعففي لا تهوّري. أدركت من المؤاخذات التي واكبت محنتي أنه يكفي في الغالب تضخيم الخطيئة لتفادي العقاب.

6 قليلٌ من التجارب مثل التي مررت بها يدفع المرء إلى التمادي في التفكير. رأيت بأَسى أن كل تصوراتي عن العدل والأمانة وسائر الفضائل الإنسانية يفندها الواقع الواحدة تلو الأخرى. كان ينهار كل يوم قسم من التعاليم التي لُقّنت لي. وما فضل منها لم يعد يشكّل نظاماً أخلاقياً قائماً بذاته. شعرت أن المبادئ أضحت تفقد بالتدريج بداهتها. فعجزت عن مواصلة التفكير ووقفت عند النقطة التي تقف عندها أنت اليوم. مع فارق هو أن الريب الذي داخلني جاء متأخراً وفي سن متقدم. شُيّد إذن بمشقة وعلى فترات، فصعب التخلص منه.

7 كنت في حال من الحيرة والشك، تلك التي يراها ديكارت ملازمة لكل باحث عن الحقيقة[1]. وهي حال نادراً ما تطول لما يصاحبها من قلق وعناء نفساني. فلا يمكث فيها إلا مَن ساءت أخلاقه أو خارت نفسه. لم يكن فؤادي قد فسد إلى حد يجعلني أرضى بمثل هذا الوضع. لا شيء يشجع على مواصلة التفكير من حال امرئ راضٍ على نفسه ساخطٍ على حظه.

8 رُحت أتأمل وضع بني آدم البئيس، يسبحون في بحر هائل من الآراء لا دليل لهم ولا مشير. تتقاذفهم أهواؤهم الهائجة، لا معين لهم سوى ملاح غير مجرب، يجهل الطريق، لا يعرف من أين أتى وأين يتجه. كنت أسرّ لنفسي: أتوخى الحق، أبحث عنه ولا أتبيّنه. ليرشدني إليه مرشد وسأتعلق به طول حياتي. لماذا يحتجب الحق عن قلب متشوق إليه متحمس لعبادته؟

---

(1) «كنت قد لاحظت منذ مدة أنه فيما يتعلق بالعاديات يلزم المرء أحياناً أن يرتضي آراءً لا يطمئن إليها كامل الاطمئنان ويتصرف كما لو كانت فوق أي شك. لكن هدفي الوحيد هو البحث عن الحقيقة، فواجبي إذن أن أفعل العكس. كل ما يبعث أدنى ريبة في النفس أعتبره باطلاً، حتى أرى هل يبقى، مما أعتقد، شيئاً أستطيع أن أقول انه الحق قطعاً.» ديكارت، **مقالة عن منهج التفكير**، بداية الجزء الرابع.

9 تعرضت في مناسبات كثيرة لمصائب أدهى من التي أحدثك عنها الآن، لكني لم أشعر قط بغمّ متّصل ومتاعب متوالية مثل ما شعرت به في تلك الفترة من حياتي حيث كنت أتردّد باستمرار من شك إلى شك دون أن أجني من طول التأمل سوى أفكار مضطربة، غامضة، متهافتة عن سر الوجود ونظام الحياة[1].

10 كيف يمكن للإنسان أن يتخذ الشك عقيدةً ويلتزم بها عن حسن نيّة؟ هذا ما لا أستطيع فهمه. هؤلاء الفلاسفة الشكّاكون إما لا وجود لهم وإما هم أشقى سكان الأرض. الارتياب في أمور تهمّنا معرفتها[2] وضع شاق بالنسبة للعقل البشري. لا يتحمله طويلاً، يلزمه الاختيار، فيفضل أن يخطئ على أن لا يؤمن.

11 وما كان يزيد من حيرتي هو أني ولدت في أحضان كنيسة تفصل في كل قضية قضية ولا تدع أي مجال للتردد. إن رفضتُ جزءاً من العقيدة، مهما دقّ، رفضت الكل. لم أستطع تصديق أحكام غير معقولة، فزهدت في أخرى معقولة. قالوا

---

(1) قارن مع قول الغزالي: «وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستفسار.» **المنقذ من الضلال**.

(2) فكرة أساسية عند روسّو. حدَّ العلم فيما هو نافع أخلاقياً.

لي: صدق الكل فأرغموني على رفض الكل. لم أعرف عند أي حدّ أقف[1].

12 فاستشرت الفلاسفة[2]. راجعت مؤلفاتهم، تقصيت آراءهم المتباينة. وجدتهم جميعاً معجبين بأنفسهم، واثقين بنظرياتهم، متشبّثين بمزاعمهم، حتى أولئك الذين يتظاهرون بالشك. عالمون بكل شيء، عاجزون عن إثبات أي شيء، فيتندّرون بعضهم من بعض. هذه النقطة الجامعة بينهم هي وحدها الصحيحة في مقالاتهم. أقوياء في حال الهجوم، ضعفاء في حال الدفاع. إن نظرتَ في حججهم وجدتها لا تصلح إلا للهدم. إن تعدّ الأصوات تلقَ أن كل واحد منهم لا يحظى إلا بمساندة صوته الخاص. قاسمُهم المشترك الجدل، فلم أجد لديهم ما ينقذني من الحيرة.

13 ثم تبيّن لي أن أصل هذا التباين الهائل في تصوراتهم يعود إلى عجز الإنسان أولاً وإلى تكبّره ثانياً. الكون آلة عظيمة لا نعرف موازنها ولا نستطيع تحديد مقاديرها. نجهل مبادئها وأهدافها. كما نجهل نفس الإنسان، نوعها ومحركها، بل لا نكاد نعرف بدقّة هل هي بسيطة أم مركبة. تحيط بنا الألغاز من كل

---

(1) هذا نقد لمنهاج المتكلمين الذين يصرّون على الاجابة عن كل سؤال يخطر على بال المجادل. وهي آفة تلحق أيضاً أهل الحديث.

(2) يعني الفلاسفة المادّيين، الطبيعيين في التعبير الإسلامي.

جانب، لا يدركها الحس، فنفكّها بالخيال ونظن أنه العقل. كل منا يشق طريقاً خاصاً به فيما يتخيل ويظن أنه الطريق الصحيح. لا أحد يستطيع أن يتيقّن أن السبيل الذي يسير فيه يوصله إلى الهدف. ومع هذا نلحّ على أن نعرف كل شيء ونرفض أن نزهد فيما لا نستطيع معرفته. نفضل أن نجازف ونؤمن بما لا يوجد عوض أن نقرّ أن كل حواسنا عاجزة عن إدراك ما يوجد. نحن جزء حقير من كلٍّ لا نقف على حدوده، وشاء الخالق أن نجادل في شأنه جدالاً عقيماً. يذهب بنا الغرور إلى حدّ أننا نتطلع إلى معرفة حقيقة ذلك الكل والعلاقة التي تربطنا به.

14 وحتى لو كان في وسع الفلاسفة أن يكتشفوا الحقيقة، من منهم يهتم بها؟ كل واحد منهم يعلم أن مقولته ليست أوثق تأصيلاً من غيرها، لكنه يتشبث بها لأنها من إبداعه. لا واحد منهم، حتى لو تبيّن الحق وميّزه عن الباطل، يفضّل الحق الذي أبدعه غيره على الباطل الذي اخترعه هو. أين الفيلسوف الذي يتورع عن خداع النوع البشري إن كان في ذلك إنقاذ لسمعته؟ أين الفيلسوف الذي، في قرارة قلبه، يتوخى غير الشهرة والنبوغ؟ كل ما يصبو إليه هو أن يسمو عن العامة، وأن يطفئ نورُه نورَ أقرانه. لا يهمه سوى مخالفة الغير، إن كان بين المؤمنين فهو ملحد، وإن كان بين الملحدين فهو مؤمن[1].

(1) نقد أخلاقي للفيلسوف يأتي بعد نقد الفلسفة كاتّجاهٍ فكري.

15 خرجت من فحص هذا الموضوع بنتيجة أولية هي أن أحصر البحث فيما يهمني في الحين والإعراض كلياً عما سواه. فلا أغتمّ إلى حدّ الارتياب إلا بما تنفعني معرفته.

16 أدركت كذلك أن الفلاسفة لم ينفوا عني الريب بقدر ما يزيدونه قوة وإيذاءً. لا يحلّون أياً من المعضلات التي تقلقني. فأعرضت عنهم وأقبلت على دليل آخر. قلت: لأستشر الوجدان[1]، إذ لا يمكن أن يضلّني أكثر مما يفعلون. إن أخطأتُ فعلى الأقل سيكون الخطأ مني والضرر سيكون أخفّ إن اتّبعت أوهامي أنا بدل أن أنصاع إلى تمويهاتهم.

17 عندئذ استعرضت كل الآراء التي استهوتني، فترة بعد أخرى، أثناء حياتي. فوجدت أن الكل لا يقنع على الفور، لكن الكل قابل للترجيح، وأن الوجدان يتقبل هذا الرأي أو يرفض ذلك على درجات متفاوتة. انطلاقاً من هذه الملاحظة الأولية، وبعد مقابلة هذه الآراء المتعارضة بعضها ببعض، دون الخضوع لأي حكم مسبق، تبيّن لي أن أولى الأفكار وأعمها هي أبسطها وأقربها إلى العقل، وأنها لم تحظ بموافقة الجميع إلا لأنها لم تعرض في ختام النقاش. لنتصور كل الفلاسفة، القدامى

---

(1) الوجدان أو الغريزة الربّانية أو نور الضمير، هو الذي يسيّر آلة العقل، وهو مقر الإيمان.

والمحدثين، بعد أن سئموا من ترديد افتراضاتهم الغامضة المستهجنة عن القوة، الاتفاق، القَدَر، الضرورة، العالم الروحي، المادة الحية، كل صور وأشكال المادية[1]، ثم يأتي في أعقاب الجميع **كلارك**[2] الشهير منيراً الخلق، كاشفاً في النهاية عن باري الكون واهب الأشياء. بأي إعجاب عام، بأي ترحيب شامل كان الجمهور يستقبل هذه الدعوة الجديدة، بما فيها من سمو ورفعة ومواساة وإعلاء للنفس وإقرار للفضيلة؟ دعوة مذهلة، ساطعة، بسيطة، غامضها أقل بكثير من المحال الموجود في غيرها. كنت أقول لنفسي: الاعتراضات التي تنفى، حتى الأكثر قوة، تجري على جميع المقولات لأنها تعجز العقل البشري، فلا تفنّد أي مقولة بعينها. أما الحجج التي تثبت فحالها مختلف. من يعلل كل ظواهر الكون، ألا يجب تصديقه إن كان يواجه صعوباتٍ أقل من التي تواجه غيره؟

18 بعد هذا لم تعد لي فلسفةٌ سوى حب الحقيقة واختزال منهاجي في قاعدة بسيطة سهلة أعفتني من الخوض في أي جدال دقيق عقيم. على هذا الأساس أعدت النظر في كل المعارف التي تهمني. ما أطمأن إليه قلبي من دون تردد اعتبرته حقيقة بديهية،

---

(1) هذه الألفاظ والعبارات كانت جارية عند كتاب **الإنسيكلوپيديا**، التي صدرت أجزاؤها تباعاً من سنة 1751 إلى 1766.

(2) Samuel Clarcke, Traité de l'existence et des attributs de Dieu, des devoirs de la religion naturelle et de la vérité de la religion chrétienne. Trad. fr. 1727.

وكل ما ترتب في نظري عن هذه الحقيقة حكمت بأنه صحيح مقرر. وغير ذلك وضعته بين المنزلتين، لا أقره ولا أنفيه، بل لا يعنيني توضيحه إن كان لا يؤدي إلى منفعة ثابتة.

19 لكن من أنا؟ هل يحق لي أن أحكم على الكائنات؟ وعلى أي أساس؟ إن كانت أحكامي اضطراريةً، متولدة بالضرورة عن الأحاسيس التي أتلقّاها من الخارج، لماذا أتكبد مشقة البحث عنها؟ ستحدث أو لا تحدث من دون أن يكون لي دخل في توجيهها. عليّ إذن أن ألتفت إلى ذاتي لأعرف الآلة التي أنوي استخدامها وجدوى اعتمادي عليها.

20 أنا كائن، لدي حواسٌ تؤثر فيّ. هذه أولى الحقائق التي يجب عليّ أن أقرّ بها. أعي نفسي، هل بوعي منفصل أم هو متّصل بوعيي بالمحسوسات؟ أول سؤال أتردد في الإجابة عنه إذ لا أستطيع أن أفصل فيه فوراً. ذلك أني معرّض باستمرار للمحسوسات، الراهنة أو المخزونة في الحافظة. كيف أعرف أن الوعي بالذات هو غير تلك المحسوسات؟ وهل يمكن أن يستقلّ عنها؟

21 بالنسبة لي المحسوسات داخليةٌ إذ تشعرني بأني موجود. لكن أسبابها خارجيةٌ إذ تؤثر فيّ رغماً عني. تظهر وتختفي دون أمر مني. أستخلص بوضوح أن المحسوس

الموجود داخلي وسببه أو موضوعه الخارجي شيئان مختلفان.

22 إذن أنا موجود، لكن غيري موجود أيضاً، أعني مضمون المحسوسات وحتى عندما تكون مجرد أفكار يبقى صحيحاً أنها ليست أفكاري أنا.

23 كل ما أشعر به خارجاً عن نفسي، مؤثراً فيها، أسمّيه **مادّة**. وكل قطعة مادة أراها مجسّدة في كائن قائم بذاته، أسمّيه جسماً. وهذا الجدال الدائر بين الفلاسفة المثاليين وزملائهم الماديين لا يفيدني شيئاً. وهمٌ في نظري تمييزهم بين ظاهر الأجسام وحقيقتها.

24 هنا أجد نفسي مقتنعاً بوجود الكون اقتناعي بوجود ذاتي. بعد هذا أتأمل مضامين أحاسيسي، فأرى أني قادر على مقارنة بعضها ببعض، قدرةً ذاتية فاعلة لم أكن أتصور أني أملكها.

25 الرؤية إحساسٌ، المقارنة حكمٌ. الإحساس والحكم شيئان مختلفان. عندما أحس تبدو لي الأشياء مفترقة، معزولة بعضها عن بعض، كما توجد في الطبيعة. عندما أقارن فكأنني أحرك الأشياء، أنقلها إن صح التعبير، أضع الشيء فوق الشيء لأقرر هل هما مختلفان أو متماثلان، وبصورة أعم أحدد كل العلاقات التي تربط بينهما. قوة التمييز هذه، الخاصة بالكائن

العاقل الفاعل، تتلخّص حسب رأيي في إعطاء معنى للفظ هو [أو هي]. أبحث عنها عند الكائن الذي لا يتعدّى الحواس، فلا أراه يقابل ثم يحكم. هذا أمر لا أرى له مثيلاً في الطبيعة. كل كائن فيها منفعل، يشعر بشيء ثم بآخر، كل على حدة أو معاً لكن منفصلين. بما أنه لا يستطيع ثني الأول على الثاني، فإنه لا يقارن بينهما قط ولا يصدر في حقهما حكماً البتة.

26 أن تلحظ شيئين في الوقت نفسه لا يستتبع أنك تدرك ما يربط أو أنك تميز ما يفصل بينهما. أن ترى أشياء كثيرة، بعضها منفصل عن بعض، لا يعني أنك عددتَها. أمسكُ بقضيب طويل وآخر قصير من دون أن أقارن بين الاثنين وأحكم أن الثاني أقصر من الأول. كما يحصل أن أرى اليد من دون أن أميز عدد الأصابع(*). هذه المفاهيم الدالة على المقارنة (أكبر، أصغر) أو على الأعداد (واحد، اثنان، إلخ) ليست محسوسات رغم أن ذهني لا يستحضرها إلا بمناسبة الإحساس.

27 يقال لنا إن من يحس يميز بين إحساسَيْن بسبب ما فيهما من فروق ذاتية. هذا قول يستدعي التوضيح. عندما تكون

(*) يحدثنا السيد دولاكوندامين[1] في رحلاته عن شعب لا يتعدّى في تعداده رقم 3. لكن لأعضاء هذا الشعب أيدي. يرون أن لكل يد خمسة أصابع ومع ذلك لا يصلون إلى رقم 5.

(1) Charles de la Condamine, Relation abrégée d'un voyage fait dans l'intérieur de l'Amérique méridionale, 1745.

فروق فعلاً بين محسوسيْن يشعر المرء بها. في حالة تماثل يميز المرء بين الأشياء المتامثلة لأن بعضها يوجد خارج البعض. لكن في الإحساس المتزامن كيف يفرق بين شيئين متماثلين؟ يمزج لا محالة بينهما ظناً منه أنهما شيء واحد، لا سيما إذا صح ادّعاء بعض الفلاسفة من أن المحسوس الدال على الامتداد غير ممتد بذاته.

28 هنا شيئان معروضان للمقارنة. نحس بالأول وبالثاني، ثم نحس بهما معاً. يحصل الإحساس بهما بدون أن نحس في الوقت نفسه بالعلاقة التي تربط بينهما. إدراك تلك العلاقة حكمٌ، إجراءٌ منا. لو كان الحكم إحساساً، لو كان ينبع من الشيء مع الإحساس به، لما أخطأنا قط إذ المحسوس محسوس كما هو. لا خطأ فيه أبداً.

29 لماذا أخطئ في تقدير النسبة بين قضيبين، لا سيما إذا كانا غير متوازيين؟ أقول مثلاً إن الأقصر ثُلث الأطول في حين أنه الربع؟ لماذا الصورة، المنطبعة في النفس، التي هي المحسوس، مخالفة للأصل الذي هو في الخارج؟ ذلك أني أقوم بفعل ذاتي عند التقدير، وأن المقارنة من فعل عقلي أنا، الذي يحدد النسب ثم يضيف الخطأ الذي هو منه إلى المحسوسات التي تعكس بالضبط حقيقة الأشياء.

30 زد على هذا أمراً تستغربه حتماً لحظةَ استحضاره. وهو أننا لو كنا مجرد وعاء لما تعرضه علينا الحواس، لما كان بين محسوساتنا أي اتّصال، ولما استطعنا أن نعرف أن ما نلمس هو نفس ما نلحظ. إما لا نحس بأي جسم وإما نحس بخمسة أجسام مستقلة من دون أن ندرك قط أنها جسم واحد.

31 مهما كان الاسم الذي نطلقه على هذه القوة الذهنية التي تقارب وتقارن بين المحسوسات، أسميناها نباهةً أو تأملاً أو تفكيراً أو استعملنا ما شئنا من الألفاظ، الصحيح أنها في نفسي وليست في الأشياء. إنها من فعلي رغم أنها لا تعمل إلا عندما تنطبع في ذهني صور الأشياء. لا خيار لي في أن أحس أو لا أحس، لكن لي كامل الحرية في أن أمحّص، كثيراً أو قليلاً، محسوساتي.

32 لست إذاً كائناً يحس وينفعل لا غير، بل أنا كائن فاعل عاقل، وعكس ما يدّعيه الفلاسفة أتجرأ وأقول إني كائن شُرّف بقوة التفكير. إلا أني أعلم في الوقت ذاته أن الحقيقة في الأشياء وليست في الأحكام التي يصدرها عقلي بشأنها. كلما احترزت في حكمي اقتربت من الصواب. وهكذا العقل نفسه يقرّ القاعدة التي خلصت إليها سابقاً وهي الميل مع الذوق دون الخضوع لأوامر العقل.

33 والآن، بعد أن تحققت، إن جاز التعبير، من أمر نفسي، ألتفت إلى ما يحيط بي. أراني بقدر غير قليل من الدهشة تائهاً ضائعاً في الكون الشاسع، كالغارق في بحر لا ساحل له من الكائنات. لا أدري كنهها لا بالنظر إلى بعضها البعض ولا بالنسبة إليّ. أدرسها، أراقبها، وأول ما يتبادر إلى ذهني، بهدف المقارنة بين أجزائها، هو نفسي.

34 كل ما أدرك بحواسي مادة. أستنبط خصائصها الجوهرية من الصفات المحسوسة التي تمكنني من إدراكها. هذه الصفات ملازمة لها. ثم أراها تارة متحركة وتارة ساكنة(*)، فأفهم أن الحركة، وكذلك السكون، ليست صفة جوهرية للمادة. الحركة فعل، فلا بد لها من سبب. إذا ارتفع السبب حلّ السكون. إذا لم يوجد شيء يؤثر في المادة، فهي لا تتحرك. وبما أنها منفعلة لا غير، فحالها الطبيعي السكون.

35 أرى أن الأجسام تخضع لنوعين من الحركة، إحداهما مستعارة والأخرى أصلية أو إرادية. وفي الحالة الأولى الباعث على الحركة خارجي وفي الثانية داخلي. لذلك لا أقول إن حركة

(*) هذا السكون هو من بعض الوجوه نسبي، لكن بما أننا نلاحظ أن الحركة تتسارع وتتباطأ، نتصور بوضوح الحد الأقصى من جهة التباطؤ، فنرى السكون مطلقاً في حين أنه نسبي فقط. ليس صحيحاً إذن أن تكون الحركة من جوهر المادة ان كان يمكن تصورها ساكنة.

الساعة ذاتية إذ لو لم يمس شيءُ النابضَ لما انعكس وجرّ معه السلسلة. كذلك لا أقول إن حركة السوائل عفوية ولا حتى حركة النار التي تثير السيولة(*).

36 قد تسألُني عن حركة الحيوان هل هي عفوية؟ جوابي أني أجهل حقيقة الأمر، لولا أن القرائن تشير إلى أنها كذلك. قد تسألني كذلك كيف أعلم أن الحركة عفوية، جوابي أني أعلمه لأني أشعر به. أريد أن أحرك ذراعي فأحركه من دون أن يكون أي سبب غير إرادتي. عبثاً يحاول المكابر نفي شعوري هذا. هو أقوى من أي برهان بديهي. أشعر به كما أشعر بأني موجود، لا فرق.

37 لو كانت كل حركات البشر، بل كل حركة، تجري على الأرض، غير عفوية، لعجزنا عن تصور سببٍ أول لها. أما أنا فإني مقتنع بأن طبيعة المادة هي السكون، وأنها عاجزة من ذاتها عن أدنى حركة، إلى حد أني عندما أصادف جسماً متحركاً، أحكم على الفور إما أنه حي وإما أنه مدفوع بقوة خارجية عنه. عقلي يرفض رفضاً باتاً أن تكون المادة غير المنتظمة تتحرك من ذاتها أو تقوم بأي فعل مهما يكن.

(*) يعتبر أصحاب الكيمياء أن عامل الاحتراق [فلوجيستيك] منتشر ساكن، راكد في الأخلاط التي يكون جزءاً منها، إلى أن يطرأ ما يحرره ثم يجمعه ثم يحركه فيحوّله إلى نار.

38 بيد أن الكون المرئي كله مادة، متناثرة جامدة[*] لا يظهر على مجموعها تلك الوحدة، ذلك الانتظام، ذلك الوعي المشترك الذي يربط بين أجزاء الجسم الحي. نعلم ذلك يقيناً إذ إننا جزء من هذا الكون ولا نشعر قط بأننا بعضٌ من كل. هذا الكون متحرك، حركاته متناسقة، متواترة، خاضعة لقوانين قارّة. فلا يملك إذن تلك الحرية (العفوية) التي نشاهدها في حركات الإنسان والحيوان. بالتالي ليس حيواناً ضخماً[1] يتحرك من ذاته. حركاته ناجمة إذن عن عامل خارجي. لا أستطيع أن أراه، لكني مقتنع في قرارة قلبي أنه موجود إلى حدّ أني لا أكاد أرى الشمس تسير من دون أن أتخيّل قوة تدفعها، أو الأرض تدور من دون أن أشعر أن يداً تديرها.

39 إذا كان لا بد لي من الاعتراف أن هناك قوانين متواترة، ماذا أستفيد من ذلك إذا كنت لا أرى لها علاقة بجوهر المادة؟ هذه القوانين ليست أشياء حقيقية، شخوصاً قائمة بذاتها، بل لها أصول مغايرة لها ومستورة عني. أكتشف بالاختيار وبالتأمل قوانين الحركة، لكن هذه القوانين تدلّنا على النتائج لا على الأسباب. فلا تكفي لفهم نظام الكون وسير العالم. تخيّل ديكارت أن السموات والأرض تنشأ عن آثار البخت والاتفاق،

(*) حاولت كل ما في وسعي لأتصور جُزيئة حية ولم أستطع ذلك. افتراض مادة حساسة بدون حواس يبدو متهافتاً غير مفهوم. قبل أن نقبل أو نرفض فرضيةما، علينا أن نفهم معناها أولاً. وهذا ما لم أهتدِ إليه.

(1) Denis Diderot, Pensées sur l'interprétation de la nature, 1754.

لكنه اضطر إلى افتراض حركة دورانية تمثل دفعةً أولى وقوةً طاردة. اهتدى نيوتن إلى إثبات قانون الجاذبية، لكن هذه لو كانت تعمل مستقلةً لحوّلت بعد حين الكون إلى جرم جامد. لذلك اضطر إلى افتراض قوة قاذفة تُجبِرُ الأجرام السماوية على المكوث في مداراتها المنحنية. ليطلعنا ديكارت على القانون الفيزيائي الذي يجعل الدوامات تدور؟ وليظهر لنا نيوتن اليد التي رمت الكواكب على رؤوس مداراتها؟[1]

40 الأسباب الأولى للحركة لا توجد في المادة. هذه تتلقى الحركة ثم توصلها لكنها لا تبدعها. كلما تأملت الطبيعة، ما فيها من فعل وفعل مضاد، كيف يؤثر بعضها في بعض، وجدتُ نفسي مرغماً على الرجوع القهقرى من نتائج إلى نتائج، ولزمني اللجوء إلى مشيئة هي المحرك الأول. أما متابعة الأسباب الواحد تلو الآخر إلى ما لا نهاية، فهو افتراض عقيم. بعبارة موجزة كل حركة غير متولدة عن أخرى تأتي حتماً عن فعل طوعي يدل على تصميم. الأجسام الجامدة لا تؤثر إلا بوساطة الحركة ولا تأثير حقيقي دون إرادة. هذا أول مبدأ أعتمده. وراء حركة الكون ونشاط الطبيعة توجد إرادة. على هذا المبدأ أشيد عقيدتي، فهو بندها الأول.

---

(1) René Descartes, Principes de la philosophie, livre III, 1670.
Isaac Newton, Principes mathématiques de philosophie naturelle, 1687.

41 كيف تؤثر الإرادة في المادة؟ هذا سرّ لا أدركه، لولا أني أعرف بالتجربة أنه يحصل. أريد أن أعمل، أعمل. أريد أن أحرك جسمي، يتحرك جسمي. أما أن يتحرك جسم جامد أو يحرك جسماً آخر، فهذا أمر غير مفهوم البتة ولا شاهد عليه. أعرف الإرادة بنتائجها لا في طبيعتها، وأعرفها كقوة محركة. أما القول إن المادة تبدع الحركة، فيعني أننا نتخيل فعلاً بلا فاعل، أي نتخيل قطعاً لا شيء.

42 لا أفهم كيف تُحرك إرادتي جسدي تماماً كما لا أفهم كيف تؤثر حواسي في نفسي. بل لا أفهم لماذا يبدو اللغز الثاني أقرب إلى الفهم من الأول. أما أنا فإني أعترف بالعجز في الحالتين، حال الفعل وحال الانفعال. الغريب هو أن ينطلق البعض من هذا العجز لدمج الجوهرين كما لو كان يكفي لنفهم بوضوح عمليتين مختلفتين إلى هذا الحد من الاختلاف أن ننسبهما إلى عامل واحد عوض عاملين اثنين.

43 الركن الأول من عقيدتي، الذي أثبتُّه قبل قليل، لا شك غامض، لكنه مفهوم، لا يصدم العقل ولا تكذبه التجربة. هل ينطبق هذا الوصف على مقالة الماديين؟ أوَليس واضحاً أن الحركة، لو كانت من طبيعة المادة، لكانت لازمة لها، لكانت حالّةً فيها دائماً وبالمقدار نفسه، هي هي في كل قطعة مادية، لا تنتقل من جزء إلى جزء، لا تزيد ولا تنقص. بل لما كان في

وسعنا تصور مادة ساكنة أصلاً؟ عندما يقول لي قائل إن الحركة من خصائص المادة بدون أن تكون من جوهرها، أرى أنه يريد خداعي بألفاظ أدحضها بسهولة لو كانت تحمل معنى. المادة إما متحركة بذاتها، فالحركة إذن من جوهرها، وإما أنها تتحرك بدفع خارجي، فلا تلازمها إلا بقدر ما يؤثر فيها ذلك العامل. ونعود إلى المعضلة السابقة.

44 الأفكار العامة المجردة هي ما أسقط البشر في مهاوي الأخطاء. لم يكشف قط لغو الميتافيزيقا عن حقيقة واحدة بينما ملأ الفكر الفلسفي بترّهات يخجل منها المرء كلما نزع عنها زينتها الكلامية. قل لي، ولدي العزيز، عندما يحدثك إنسان عن قوة عمياء منتشرة في الطبيعة، هل يغني عقلك بفكرة حقيقية؟ يظن أنه يعني شيئاً حين ينطق بعبارات مبهمة مثل قوة كونية أو حركة اضطرارية، والحال أنها كلمات جوفاء. الحركة تعني فقط الانتقال من مكان إلى آخر، ولا حركة من دون وجهة إذ لا يمكن لأي فرد أن يسير في جميع الوجهات في آن. في أي اتجاه تسير إذن المادة سيراً اضطرارياً؟ وهل للمادة كلها، بصفتها جسماً واحداً، حركةٌ متّسقة أم لكل ذرة منها حركة مستقلة؟ إن كانت الأولى فالكون بأجمعه كتلة صلبة متراصة، وإن كانت الأخرى، فهو سائل متناثر غير متجانس، دون أن يمكن لذرّتين أن تلتقيا أبداً. المادة ككتلة في أي اتجاه تتحرك؟ على خط مستقيم؟ إلى أعلى أم إلى أسفل؟ يميناً أم شمالاً؟ إن سارت كل جُزيئة في

اتّجاه خاص بها، لماذا تتعدّد الوجهات المختلفة؟ إذا دارت كل ذرة أو كل جزيئة على قطب، لا شيء أبداً يبرح مكانه ولا يتلقى أبداً حركة من غيره؟ بل لا يتصور أن تأخذ الحركة الدائرية وجهة ما. إسناد الحركة إلى المادة، إثر تحليل تجريدي، لا يفيد شيئاً أصلاً، وتحديد اتجاه معيّن لتلك الحركة المفترضة يستلزم سبباً خاصاً بذلك. كلما زدنا من عدد القوى المستقلة لزمنا افتراض أسباب جديدة دون الوصول أبداً إلى فاعل واحد يسيّر الكل. عوض أن أرى نظاماً ما فيما يعرض من توافق بين العناصر، لا أستطيع حتى تصور كيف تتصارع. أن يكون الكون فوضى فكرة تبدو لي عصيّة على الفهم أكثر من أن يكون فيه تناسب. أقبل بسهولة أن يعجز العقل البشري عن إدراك سرّ الكون، لكن من يتجرأ ويدّعي أنه فكّ ذلك اللغز فمن واجبه أن يقول قولاً مفهوماً.

45 إن كانت حركة المادة تدلّ على وجود إرادة، فإن المادة المتحركة حسب قوانين ثابتة تدلّ على عقل. هذا هو الركن الثاني في عقيدتي. الفعل، المقارنة، الاختيار، هذا ما لا يقوم به إلا كائن فاعل عاقل. ذلك الكائن موجود إذن. تسألني: أين ترى وجوده؟ أرى وجوده في السماوات حين تجري، في الكوكب حين ينير، كما أراه في نفسي، بل في الغنم الذي يرعى، في الطير وهو يحلّق في السماء، في الحجرة وهي تسقط على الأرض، في أوراق الشجر حين تتقاذفها الرياح.

46 أحكم بأن للكون نظاماً رغم أني لا أعلم الغاية من إبداعه. يكفي، لأثبت حكمي، أن أقارن بين أجزائه، أن أتأمل ما بينها من علاقات، أن أفحص ما بينها من تناسب. أجهل لماذا وُجد الكون، لكنني ألاحظ كيف يتغير. أرصد الانسجام بين مكوّناته وكيف بعضها يكمل بعضها الآخر. إني في مقام رجل يرى لأول مرة داخل ساعة (منجانة)، لا يسعه إلا أن يستغرب جودة صنعها مع أنه يجهل لأي شيء تصلح ولم يعثر على مينائها. سيقول: لا أدري لماذا تصلح إذا جُمّعت لكن أرى أن كل جزء منها صنع ليساير الباقي، أتعجب من مهارة الصانع ومن إتقان ما صنع، وأتيقن أن دواليبها تعمل باتّساق لغاية واحدة لا أستطيع الآن تبيّنها.

47 لنقارن بين أنواع الكائنات، أهدافها ووسائلها، علاقات بعضها ببعض، ثم لنستشر وجداننا. أي عاقل يرفض الإنصات لشهادته؟ هل يخفى على أي ناظر منصف أن النظام الظاهر في الكون يُنبئ بوجود عقل أسمى؟ كم من تمويهات يجب إيرادها حتى نستطيع نكران التناسب بين المخلوقات والمساهمة التي توفرها كل قطعة لضمان سير المجموع؟ ليحدثني مَن أراد وطالما أراد عن المصادفة والاتفاق، قد يفحمني من دون أن يقنعني، ماذا يفيد ذلك؟ وجداني يفند باستمرار، رغماً عني، كل مزاعمه. هل يستطيع أن يُسكت صوت الوجدان؟ إن حصل فعلاً أن الأجسام انتظمت صدفةً بعمل الاتفاق في ألف شكل وشكل قبل أن تستقر على صورتها الراهنة، إن وُجدت في غابر الأيام

معدةٌ ولا فم، رجل ولا رأس، يد ولا ذراع، إن ظهرت أعضاء ناقصة ثم اختفت لأنها لم تستطع البقاء، ما بالنا لا نرى آثار هذه التطورات اليوم؟ لماذا التزمت الطبيعة بغتةً بقواعد صارمة تجاهلتها طوال أحقاب مديدة؟ لا أستبعد أن يتحقق الممكن مع طول الزمن وأن يهون الحدث الصعب إن توالت المحاولات.
أقرّ بذلك. لكن إن قال قائل إن حروفاً رميت في الهواء فهوت وتألف منها كتاب الانيادة[1]، لن أحرك ساكناً لأختبر صحة هذا الادّعاء. قد يُعترض عليّ: إنك تهمل عدد الرميات؟ طيب، كم رمية يجب أن نفترض حتى يعود التأليف المذكور من الممكن؟ أنا أرى رمية واحدة فقط وأراهن بعدد لامتناهٍ ضد واحد على أن النتيجة ليست اتّفاقية. ثم إن المركّب الناتج عن الاتّفاق لا يغير شيئاً من طبيعة الأجزاء المركبة. عدد الرميات، مهما كبر، لن يبعث في ذرات المادة النظام أو الحياة. الكيميائي الذي يمزج الأفراد ويرميها في مذوبه لا يبعث فيها أبداً الشعور أو الفكر[*].

---

(1) ملحمة الشاعر فرجيل الذي عاش تحت الامبراطور أوغوست من سنة 70ق. م إلى سنة 19م.

(*) لولا قيام الدليل على هذا الادّعاء لما تصور أحد أن يصل التهور بالبشر إلى هذا الحد. يؤكد **أماتوس البورتغالي**[2] أنه رأى بأم عينه إنساناً لا يزيد طوله على شبر قابعاً في كأس، صنعه بالكيمياء پروموثيوس حديث يدعى يوليوس كاميلّوس. ويصف پراسلسوس[2] في كتابع **طبائع الأشياء** كيف صنع رجالاً =

---

(2) أماتوس البورتغالي هو يوهانس رودريكوس، طبيب يهودي عاش في القرن الخامس عشر. پراسلسوس (Paracelsus) طبيب وكيميائي سويسري عاش من سنة 1493 إلى 1541.

48 اندهشتُ أولاً لما تصفحت كتاب **نيوفنتيت**[1] ثم استنكرت محتواه. كيف بدا للرجل أن يُحصي في مؤلَّف واحد بدائع المخلوقات الدالّة على حكمة الخالق. لو كان الكتاب في حجم الدنيا لما استوفى الموضوع. ثم عند التدقيق تجد أن مؤلِّف الكتاب أغفل أعجب العجائب، أعني تناسب وتكامل المجموع. نشوء الأجسام المنتظمة الحية وحده أمر حيّر العقول. وذلك الحاجز المانع الذي أقامته الطبيعة لتفصل بين الأنواع حتى لا تمتزج قط يدلّ بوضوح على قصدها. لم تكتف بوضع النظام بل اتّخذت كل الاحتياطات حتى لا يطرأ أبداً ما يجعله يختلّ.

49 كل كائن يمكن اعتباره، بوجه ما، قطباً تنتظم حوله سائر الموجودات، فتعود هذه جميعاً وسائل وغايات بعضها لبعض. يتيه الفكر في هذا العدد المذهل من الروابط المتشابكة لا يضيع منها شيء قط أو ينحلّ في المجموع. كم من افتراضات غبية يلجأ إليها بعض الناس لإضافة هذا التكامل العجيب إلى تطورات عشوائية تجري في مادة تتحرك اعتباطاً! ينفون أن هناك

= أقزاماً. كما يدّعي أن أقزام أفريقيا والمخلوقات المذكورة في الميثولوجيا، مثل الفون (faune) والساطير (satyre) والحورية (nymphe)، كلها من عمل الكيمياء. وبالفعل يكفي، فيما أرى، لإثبات كل هذا أن نقرّ أن المادة الحية لا تنالها النار وأن جُزيئاتها تظل حية بطبعها حتى عند صهرها في فرن أهل الصنعة.

(1) Bernard Nieuwentyt, L'existence de Dieu démontrée par les merveilles de la nature, 1725.

إرادة واحدة تتجلى في علاقات أجزاء الكون بعضها ببعض، فيتكلّفون عبارات جوفاء مثل المجرّدات والتوافقات والمبادئ العامة والرموز المميزة. رغم تحذلُقهم لا أستطيع تصور مجموعات من الكائنات منتظمة انتظاماً قاراً بدون أن أفترض عقلاً هو المسؤول عن ذلك الانتظام. لا أستسيغ، رغم جهودي الصادقة، أن تكون المادة الجامدة الميتة قد أنتجت كائناً ذا حياة وإحساس، أن يكون الدهر قد أبدع من غير قصد كائناتٍ عاقلة وأن ما لا يفكر قد أنشأ كائناً يفكر.

50 أؤمن إذن أن الكون تسيّره إرادة قارة وحكيمة. أرى ذلك، بل أشعر به، وهو أمر يهمني أن أعرفه. هذا الكون، هل هو أزلي أم له بداية؟ هذه الأشياء هل مُبدعها واحد أم اثنان أم أكثر؟ وكل هذا الذي ذكرنا ما طبيعته؟ أجهل كل شيء عن هذه الأمور ولا تعنيني معرفتها. لا أبحث جاهداً عن حقيقة أمر إلا إذا اتّضحت لي منفعة التعرّف عليها، وإلا تركت كل تساؤل عقيم، يثير فضولي ولا يؤثر في سلوكي أو يكون في متناول عقلي.

51 أذكّرك، ولدي، أني أريد أن أعرض ما في فؤادي، لا أن أفرضَه على أي كان. أكانت المادة أزلية أم مخلوقة، أكان في الأصل مبدأ غير فعّال أم لا، يبقى صحيحاً في كل حال أن الكون مؤلّف غير متناثر وأن وحدته هذه تشهد على وجود عقل واحد، إذ كل ما أرى في هذا الكون إلا وهو خاضع للنظام

نفسه، ساعياً للغاية نفسها، هو استمرار الكون ودوام نظامه. هذا الكائن المريد القادر، هذا الكائن الفعال بذاته، هذا الكائن، أخيراً، أياً كان، الذي يحرك الكون وينظم الأشياء أطلق عليه اسم **الرب**. أضمّن هذا اللفظ معاني العقل والقدرة والمشيئة، التي اتّضحت لي إلى حدّ الآن، وأضيف إليها معنى الفضل أو الجود التابع لها بالضرورة. لكن الاسم لا يكشف شيئاً عن المسمّى. لا أدرك المسمّى لا بحسّي ولا بعقلي. كلما تأملته اختلط عليّ أمره. أعلم يقيناً أنه موجود، وموجود بذاته، كما أعلم أن وجودي مرتبط بوجوده، وأن كل شيء أعرفه حاله مثل حالي. أينما ملتُ تجلّى لي الرب في أفعاله. أشعر به في ذاتي وأراه في كل شيء خارج ذاتي. لكن إن رمتُ رؤيته في ذاته، إن سألتُ أين هو؟ من هو؟ ما جوهره؟ غاب عني، اضطرب ذهني ولم يعد يرى أي شيء.

52 وعياً مني بهذا التصور لن أجادل أحداً قط في ماهية الرب، إلا إذا جرّني إلى ذلك شعوري بما يربطني به. مثل هذا الجدل مخاطرةٌ كبيرة، لا يليق بعاقل أن يتجرأ عليها إلا بكثير من الحذر والخشوع، إيماناً منه أنه غير مسلّح للتدقيق في هذا الأمر. أكبر استخفاف بالرب ليس الغفلة عنه بل التفكير فيه بما لا يليق.

53 بعد اكتشافي الصفات التي تثبت وجودي، أثوب إلى

نفسي وأبحث عن موقعي داخل نظام المخلوقات الخاضعة لمشيئتي، أو ما يسعني فحصه من شؤونها. فأجد أن النوع الذي أنتمي إليه يحتل بلا ريب الصدارة. ذلك أني أستطيع، بإرادتي وبما أملك من مواهب لتحقيق ما أريد، أن أؤثّر في سائر الأجسام المحيطة بي، أكانت مطاوعة لي أو ممانعة، أكثر مما تستطيع هي، بمجرّد التماسّ، التأثير فيّ رغماً عني. أي كائن غير الإنسان يعرف كيف يراقب كل ما سواه، أن يقيس ويحصي، أن يتنبّأ بالحركات وبنتائجها، مازجاً، إن صح التعبير، شعوره بالوجود العام وشعوره بوجوده الخاص. أولا يحقّ له، بدون أن يثير السخرية، أن يعتقد أن كل شيء خُلق من أجله إن كان وحده يستطيع ربط كل كائن بذاته؟

54 صحيح إذن أن الإنسان هو سيّد الأرض التي يسكنها، ليس فقط لأنه يُطوّع لأغراضه كل حيواناتها ويتصرف بمهارة في خيراتها، بل لأنه وحده يفعل ذلك. وحتى الكواكب البعيدة عن متناوله، فإنه يمتلكها بالنظر والتأمل. دلّوني على حيوان سواه قادر في الوقت نفسه على الانتفاع من النار وعلى الانبهار بعظمة الشمس. ويحك، أيها الفيلسوف، أستطيع أن أراقب، أن أعرف المخلوقات وعلاقات بعضها ببعض، أن أفهم ما النظام والجمال والفضيلة، أن أتأمل الكون وأتطلّع بفكري إلى اليد التي تسيّره، أن أحب الخير وأن أفعله، ومع هذا أساوي نفسي بالعجماوات؟ أيها الشخص الدنيء، فلسفتك المقيتة هي التي تضعك في

مستواها. بيد أنك تصرّ عبثاً على إذلال نفسك، فكرك السامي يشهد على فساد عقيدتك، قلبك الطيب يفنّد دعواك، وحتى غُلوّك في توظيف مواهبك يدلّ، رغم أنفك، على سمو عقلك.

55 أما وأنا رجل ساذج يتوخى الصدق، لا يتحيز لأية نحلة، لا يتعصب لأية فرقة، لا يطمح لرئاسة أي حزب، راضٍ بالمكان الذي وضعني فيه الرب، فلا أرى غير النوع الذي أنتمي إليه كائناً أشرف منه. لو وجب عليّ أن أختار في سلّم المخلوقات رتبة لنفسي، لما تطلعت إلى ما فوق الإنسان.

56 وهذه فكرةٌ تدعوني إلى الامتنان لا إلى الاعتزاز، لأن وضعي ليس من اختياري، لا يعود إلى أية مزية يتحلّى بها الإنسان قبل أن يوجد. هل يحق لي أن أرى هذا التشريف بدون أن أهنّئ نفسي على هذه المنحة وبدون أن أبارك المانح؟ أثناء هذه الأوبة الأولية إلى نفسي يمتلئ فؤادي بمشاعر الحمد والشكر تجاه باري الجنس البشري، وعن هذه المشاعر تتولّد طبيعياً أولى تحية للرب صاحب الفضل. أسبّح لكبير قدرته وينشرح قلبي لسخائه. فلا أحتاج لمن يهديني إلى عبادة تفرضها عليّ الفطرة. من طبيعة النفس البشرية أن تحب ذاتها، فكيف لا تقدس تلقائياً من يرعاها، كيف لا تحب من يسدي لها الخير؟

57 لكن عندما أتوخى معرفة موقعي أنا كفرد داخل النوع

البشري، وأتأمل المراتب ومن يعتليها، ماذا ألاحظ؟ أي منظر أكتشف؟ أين النظام الذي بهرني قبل قليل؟ كل شيء في الطبيعة تناسُبٌ وتكامل، وكل شيء في دنيا البشر اضطراب وفوضى. عناصر الطبيعة في تعاضد دائم وبنو آدم في تناحر مستمر. الحيوانات كلها سعيدة، سيّدها وحده بئيس! أين حكمتك يا رب؟ أين دلائل رعايتك؟ أين آيات قدرتك؟ لا أرى على وجه الأرض سوى معالم الشر.

58 هل تصدّقني، ولدي العزيز، إن قلت لك ان هذه الأفكار الكئيبة، هذه التناقضات الجلية، هي التي ولّدت في ذهني مفهوم **الروح**، هذا المفهوم السامي الذي لم يكن عرض لي بعدُ. بدا لي وأنا أتأمل طبيعة الإنسان أنه ينطوي على عنصرين مختلفين. أحدُهما يجذبه نحو الحقائق الأزلية، يدعوه إلى حب العدل والفضيلة، إلى اقتحام العالم العلوي الذي يبهج قلب الحكيم، والثاني يربطه بذاته السفلى، يجعله أسير حواسّه، مطاوعاً لأدواتها، أي الشهوات، معاكساً بذلك كل ما يلهمه العنصر الأول. كنت أقول في نفسي وأنا أشعر بتجاذب وتصارع هاتين الحركتين المتعاكستين: لا وحدة في الإنسان، أريد ولا أريد، أشعر في آن أني حرّ وأني مقيّد، أرى الخير، أحبّه ثم أفعل الشرّ، متحمس نشيط عندما أنصت للعقل، متخاذل ضعيف عندما أنصاع للشهوة. وما يحزّ في قلبي عند الانزلاق هو أني أعلم أني كنت قادراً على الصمود.

59 ولدي العزيز، اطمئن إلى ما أقوله لك، سأتوخى دائماً الصدق معك. إن كان ضمير الإنسان خرافة تتوارثها الأجيال، فأنا مخطئ بدون شك ويلزمني الاعتراف أن لا أساس للأخلاق. لكن إذا صح أن الإنسان من جهة يفضل نفسه على كل ما سواها، ومن جهة ثانية يشعر، مطبوعةً في قلبه، غريزةَ العدل والإنصاف، وجب على من يدّعي أن الإنسان كائن بسيط أن يرفع هذا الالتباس، وعندئذ أقرّ له أن لا شيء في الكون سوى جوهر واحد.

60 لاحظ أني أعني بلفظ جوهر، على وجه العموم، الكائن المتّصف بصفة أصلية مجرداً عما سواها من تغيرات آنية أو لاحقة. إذا أمكننا أن نردّ كل الصفات المعروفة لدينا إلى صفة واحدة، حق لنا القول بوحدة الجوهر. أما إذا وجدنا أن الصفات متعارضة، كلما ميزنا واحدة وجب اعتبارها جوهراً مستقلاً. تأمل أنت هذه المسألة. أما أنا فيكفيني، رغم كل مزاعم **لوك**[1]، أن أعرف أن للمادة صفةً أساسية هي الامتداد القابل للتجزئة لأقتنع أنها لا تفكر. وإذا جاءني فيلسوف قائلاً إن للأشجار إحساساً وللأحجار عقلاً[*]، قد يُربكني بعضَ الوقت بتشقيقاته اللفظية،

---

(1) John Locke, Essai philosophique concernant l'entenderment humain, 1690.

(*) يبدو لي أن الفلسفة الحديثة لم تقل فقط إن الأحجار تفكر بل اكتشفت أن الإنسان لا يفكر. لا ترى في الطبيعة كلها سوى كائناتٍ حساسة، الفرق الوحيد الذي تقرّه بين الإنسان والحجر هو أن الأول حساس بأحاسيس

لكني في النهاية لن أرى فيه سوى سفسطائي محتال يفضل أن ينسب الحس للأشجار على أن يقرّ بأن للإنسان روحاً.

61 لنأخذ على سبيل المثال رجلاً أصم لم يطرق أذنه قط صوت، فيجهل أن الأصوات موجودة. أضع تحت أنظاره آلة موسيقية ذات أوتار، ثم بواسطة آلة أخرى مخفية عنه أجعل أوتار الأولى تتحرك بسبب التساوق. يرى الأصم أوتار الآلة المكشوفة تتحرك، فأقول له أن السبب هو الصوت. ينفي ذلك قائلاً: بل هذا من طبيعة الوتر، مثله مثل كل الأجسام. أجيبه: أريني ذلك في غير هذه الآلة أو بيّن لي سبب ارتعاش هذا الوتر بالذات.

= والثاني بدونها. لكن إذا صحّ أن المادة تحس، أين الوحدة الحساسة أو الأنا الفردي؟ هل توجد في جزيئة المادة أم في الجسم كله؟ هل حالها واحد في السوائل والجوامد، في الأخلاط وفي الأوحاد؟ يقال: لا شيء في الطبيعة سوى الأوحاد، لكن ماهي بالضبط تلك الأوحاد؟ هذه الحجرة هل هي أوحد أم مجموعة أوحاد؟ هل هي كائن واحد حسّاس أم تحتوي على أوحاد كثيرة مثل حبات الرمل؟ إن كان كل جزء فرد كائناً حساساً، كيف أتصور الاتّصال الحميم الذي يحس به الواحد داخل الآخر بحيث يمتزج الاثنان ويشعران أنهما واحد؟ الجاذبية قوة طبيعية نجهل ماهيتها، لكن نفهم على الأقل أنها تؤثر حسب حجم هذا الجسم أو ذاك، فلا تناقِض امتداد الأجسام وقابليتها للتجزئة. حاول تطبيق هذا الوصف على العواطف. الأجزاء الحساسة ممتدة، لكن الحاسة، محجوبة وواحدة، لا تتجزأ، فهي إما موجودة كاملة، واما معدومة تماماً، ليست جسماً إذن. لا أعرف كيف يفهم المسألة زملاؤنا الطبيعيون، لكني أرى أن الاشكالات التي دفعتهم إلى استبعاد الفكر يجب أن تدعوهم إلى استبعاد الحاسة أيضاً. ولا أفهم لماذا، بعد الخطوة الأولى، يحجمون أمام الثانية. ماذا يخسرون بذلك؟ وبما أنهم مقتنعون أنهم لا يفكرون، كيف يتجرأون ويقولون إنهم يحسّون؟

فيردّ: لا أستطيع ذلك، لكن بما أني لا أفهم كيف تحرك هذا الوتر، لماذا يجب عليّ أن أفسر الأمر بالصوت الذي تحدّثني عنه والحال أني لا أراه ولا أعرف عنه شيئاً؟ هذا يعني أني أفسر حادثاً غامضاً بآخر أكثر غموضاً. أسمعني الصوت أو دعني أقول إنه غير موجود.

62 كلما تأملت فكر بني آدم وطبيعة ذهنهم وجدت أن برهان الفلاسفة الماديين يشبه كلام هذا الرجل الأصم. في الواقع هم مثله صمّ لا يسمعون صوت الوجدان الذي يصرخ بنبرة بيّنة واضحة أن الآلة لا تفكر، أن الحركة ولا الأشكال الهندسية تكوّن أبداً فكراً. أيها الإنسان، إن شيئاً في ذاتك يروم الانفلات من القيود التي تكبّلك، إنك لا تقاس بالطول والعرض، لا يسعك الكون بكل ما فيه، إن عواطفك، همومك، بل فخرك وكبرياءك، كل ذلك عائد إلى جوهر مغاير لجسمك الضيق الذي تشعر أنك سجين فيه.

63 لا يوجد كائن مادي يعمل بذاته وأنا أفعل ذلك. أشعر بالأمر مهما جادلني فيه سواي. شعوري به أقوى عندي من كل البراهين التي تجحده. أملك جسداً تؤثر فيه الأجسامُ الخارجية بقدر ما يؤثر فيها هو. تأثيرٌ متبادل لا شك فيه. لكن إرادتي مستقلة عن حواسي، مرة أساير ومرة أمانع، مرة أندحر ومرة أنتصر، في كل حال أميِّز بوضوح إن فعلت ما قررته أنا أم

طاوعت ما أملته عليّ الأهواء. أقرر ما أريد حتى وإن أعجزني تحقيقه. عندما أخضع للمغريات أعمل بإيعاز من الخارج، عندما تؤنبني نفسي على الانصياع أسمع صوت إرادتي لا غير. أنا إذن عبد مطيع عند الخطأ، حرّ طليق عند التوبة. الشعور أن إرادتي مستقلةٌ لا ينطمس إلا إذا فسدت أخلاقي كلياً ومنعت صوت ضميري من الاحتجاج على أوامر جسدي.

64 لا أعرف عن الإرادة إلا ما أجرّبه منها داخل نفسي، كما لا أعرف العقل إلا بالطريقة نفسها. لما أُسأل: ما الحافز على الإرادة؟ أسأل السائل: ما الحافز على التمييز؟ لا فرق بين الأمرين. إذا فهمنا جيداً أن الانسان فاعل عندما يميّز، وأن التمييز ليس سوى القدرة على المقابلة ثم الفصل، اتّضح عندها أن إرادة الإنسان قدرةٌ شبيهة بالأولى أو متولدة عنها. إن اختار المرء الخير في سلوكه أصاب الحق في حكمه، وإن حكم بالباطل مال إلى ارتكاب السوء. ما المتحكم في الإرادة؟ قوة التمييز. ما الباعث على التمييز؟ قوة الإدراك، القدرة على الحكم. السبب الموجب يوجد في قلب الإنسان. خارج هذه النقطة لا أفهم شيئاً.

65 لا شك في أني لست حراً أن لا أختار ما هو مفيد لي، كما أني لست حراً أن أختار ما هو سيّئ لي. لكن حريتي هي بالضبط أن لا أريد إلا ما يوافقني، أو ما يبدو لي كذلك،

دون أن يؤثر في اختياري عامل خارجي. هل يعني أني لست سيّد نفسي لأني لا أملك أن أكون غيري؟

66 مبدأ كل فعل مشيئةٌ صادرة عن كائن حر. لا سبيل للباحث أن يذهب أبعد من هذه النتيجة. ليست كلمة حرية جوفاء، بل كلمة ضرورة هي التي لا تؤدي أي معنى. أن نفترض فعلاً أو أثراً دون أن يسبقه مبدأ فاعل، يعني تصور مسبّب بلا سبب أي السقوط في دور. إما ننفي أن تكون دفعة أولية[1] وإما نقرّ أن كل دفعة أولية تحصل بلا سبب سابق. [هناك إذن مشيئة] ولا مشيئة حقاً دون حرية. الإنسان حرّ في أفعاله، وبما أنه حرّ الباعث على فعله جوهر غير مادّي. هذا هو البند الثالث من عقيدتي. وانطلاقاً من البنود الثلاثة المذكورة يمكن استنباط الأخرى من دون أن أضطر إلى متابعة سردها.

67 الإنسان فاعل حرّ. فعله إذن منه، وما يفعله بإرادة حرّة لا يدخل في النظام الذي اختاره الخالق بتدبيره وحكمته، فلا يجب إضافته إليه. الرب، المدبّر للكون والساهر عليه، لا يريد الشر الذي يقترفه الإنسان بالإسراف في استغلال الحرية المخولة إليه. لا يمنع حدوثه، إما لأنه بلا تأثير نظراً لتفاهة فاعله، وإما لأن منع الشر لا يتم إلا بنفي حرية البشر وهو شر أكبر إذ يطعن

(1) كما تخيّل ذلك ديكارت.

في قيمة الإنسان الذي أوجده الرب لا ليفعل الشر بل ليُقبل على الخير مختاراً. ولكي يختار وفّر له القوى الضرورية لذلك، مع وضع حدّ لها حتى لا يُخل الإفراط في الحرية بتوازن الكون. الشر الذي يفعله الإنسان يعود عليه بالضرر بدون أن يؤثر سلباً على النظام العام وبدون أن يمنع الجنس البشري من أن يواصل، مهما فعل، مسيرته. مَن يتذمر من أن الرب لا يثني الإنسان عن فعل الشر يعترض في الواقع على أنه حاباه بطبيعة ممتازة وأضفى على أفعاله صفة الأخلاق التي تزيدها شرفاً وتكريماً، إذ بها ندبه إلى التحلّي بالفضيلة. أية سعادة أكبر من الشعور بالرضى على النفس؟ وحتى نستحق تلك الغبطة وضعنا فوق هذه الأرض أحراراً لنختار، وبلانا بالشهوات ليمتحننا ووهبنا الضمير لنقاومها. هل كان في وسع القدرة الربانية نفسها أن تهب لنا أكثر مما فعلت؟ أكان وارداً أن تضع الصراع والتناقض في قلب طبيعتنا وتجازي على الخير من لا يقوى على الشر؟ ويحك أيها المتذمر! حتى لا يكون الإنسان شريراً أكان على الباري أن يسجنه في حدود الغريزة ويجعل منه بهيمة؟ حاشاك ربّي ومالك روحي أن ألومك أبداً إذ جعلتني على صورتك لأكون مثلك حراً خيّراً سعيداً!

68 الإسراف في توظيف مواهبنا هو سبب شقائنا وميلنا إلى الشر. هو منبع أحزاننا وهمومنا ومتاعبنا. نحن مسؤولون عن الشر الأدبي، أما الشر الطبيعي [الألم]، فلا يؤثر فينا إلا عن طريق الرذائل، إذ لولاها لما شعرنا به. شاءت الطبيعة أن

نستشعر الحاجة لكي نحافظ على سلامة ذاتنا. نحس بالألم في جسمنا تنبيهاً على عطب طارئ وحثاً على معالجته... والموت؟ أولم يعكّر الظالمون عيشهم وعيشنا؟ مَن منا يتمنّى أن يعيش إلى الأبد؟ الموت منّة، شفاء للداء الذي نتسبب فيه إذ رفضت الطبيعة أن نتألم على الدوام. من يظل على الفطرة ويعيش عيشة بسيطة يتعرض لقليل من الداء ولا يكاد يعرف ما المرض أو الشهوة، فلا يترقب الموت ولا يشعر به وهو يباغته. وحتى إذا شعر به ارتاح له إذ يضع حدّاً لبؤسه، فلا يرى فيه شراً. لو رضينا بوضعنا لما ندبنا حظنا. لكننا نلاحق ملاذّ وهمية، فنجني ألف ضرر حقيقي. من لا يصبر على القليل من الألم يتعرض حتماً للكثير منه. يحطم المرء صحّته بعيشة متهورة ثم يروم إصلاح ما فسد بتناول الأدوية، فيزيد إلى ألم يشعر به آلاماً يتوقعها. من يخشى الموت كل يوم يعجلها ويزيدها بشاعة. كلما استبعدها شعر بقربها، فيموت رعباً كل يوم من حياته، ناعياً على الطبيعة تلك الآلام الناتجة عن تنكّره وإهماله لها.

69 أيها الانسان لا تبحث عن أصل الشر، فاعله أنت لا أحد سواك. لا شر في الكون إلا مما تفعل أو ما تتحمل، هذا وذاك صادر عنك. شر عام ينشأ حتماً عن فوضى شاملة، ولا أرى في الكون سوى النظام. شر خاص هو الذي يشعر به كائن يتألم، وهذا شعور لم يتسلمه الإنسان من الطبيعة، بل جرّه الإنسان على نفسه. قليل التفكير لا يستشعر الألم إذ لا يتذكر

الماضي ولا يرتقب المستقبل. لنغفل ما ابتدعه الإنسان، ظناً منه أنه تقدّم ورقيّ، لنغفل أخطاءه ورذائله وكل مبادراته الخادعة، عندها لن نرى في الكون كله سوى الخير[1].

70 حيث لا شر لا ظلم إذ العدل توأم الخير. الخير متولد بالضرورة عن القدرة اللامتناهية وعن حب الذات الملازم لكل كائن ذي إحساس. مَن يستطيع كل شيء ينتشر أو يتّسع، إن صحّت العبارة، بوجود الكائنات. الخلق والمحافظة على ما خلق فعلٌ واحد دالٌّ على القدرة. وهذه لا تتجلّى في العدم. ليس الرب رب الأموات. لا يمكن أن يعدم أو يظلم دون إلحاق الضرر بذاته. القادر على كل شيء لا يسعه إلا توخّي الخير[*]. إذن الكائن المفضال بإطلاق لأنه قادر بإطلاق لا يمكن إلا أن يكون عادلاً بإطلاق، وإلا نقض ذاته، إذ من يحب النظام فيوجده، في تعبيرنا محسن، ومن يحب النظام فيحفظه، عادل.

71 يقال: لا حق للمخلوق على الخالق. أقول أنا: على الخالق أن يفي بوعده للمخلوق عندما خلقه. أليس وعداً منه إذ يزرع في قلب المخلوق فكرة الخير والنزوع إلى فعله؟ كلما

---

(1) تذكير بأطروحة المؤلف في الكتاب الذي كان سبب شهرته.
Jean-Jacques Rousseau, Discours sur les sciences et les arts, 1751.

(*) القدماء على حق عندما ينعتون إلههم الأعلى بالأكرم الأعظم (optimus maximus) لو قالوا الأعظم الأكرم لكانت تسميتهم له أدق لأن الكرم يأتي من العظمة. الرب كريم لأنه عظيم.

راجعت نفسي، كلما استشرتها، قرأت فيها بحروف بارزة هذه العبارة: اعدِلْ تنعَم. غير أن الواقع يكذب هذا الوعد. الظالم في نعيم والعادل في جحيم. أي غيظ يغمرنا عندما يخيب رجاؤنا. يثور ضميرنا ضد خالقه فيتحسر ويصرخ: لقد خدعتَني يا رب!

72 أنا خدعتك؟ من قال لك هذا يا ظالم؟ هل أعدمت روحك؟ هل أنهيت حياتك؟ بروتوس، ابني بروتوس، لا تلطخ آخر أيامك، لا تودع الأمل، لا تتنكر لأمجادك عندما تفارق روحُك الجسد في ميدان فيليبا[1]. لماذا تقول: الفضيلة سراب وأنت قاب قوسين من جزاء حسناتك. تظن أنك ميت، بل أنت حيّ وعن قريب تنعم عندي بما وعدتك.

73 كما لو كان واجباً على الخالق، في عين هؤلاء المتبرّمين، أن يجازيهم قبل أن يستحقوا الجزاء، أن يؤدي مسبقاً ثمن الفضيلة. ويْحكم! لنفعل البرّ حتى نسعد به، لا يجب أن نطلب الجائزة قبل الفوز وأحرى قبل النصر. يقول فلوطارخوس[2]: في ألعابنا المقدسة لا يتوّج الفائز وهو على الحلبة بل عندما يستعد لمغادرتها.

---

(1) بروتوس، رافع لواء الحرية والجمهورية وأحد المتآمرين على قيصر رغم أنه كان قد تبناه. انهزم سنة 42 ق.م. على يد أنطوان وأوكاف في معركة فيليبا، بلدة في اليونان.

(2) مؤلف يوناني عاش من 46 إلى 120م. الإشارة إلى كتابه **الأخلاق** (Moralia)، 1570.

74 إن كانت النفس من جوهرٍ مغاير للمادة، فليس ضرورياً أن تفنى مع الجسد وبذلك تتم الرعاية الربانية. لا أرى دليلاً أبلغ على لامادية النفس من عز الظالم وذل الرجل العادل. بهذا الأمر وحده تتبدّد كل شكوكي، فيه خَرْمٌ لنظام الكون فلا بد لي أن أجد له تبريراً. أقول: ليس الممات نهاية كل شيء، بل عبرها تستعيد الأشياء توازنها. صحيح أن الحيرة تستولي عليّ عندما أتساءل: هل يظل الإنسان إنساناً حقاً إذا ما فنيت كل محسوساته؟ لولا أني قررت سابقاً أن الإنسان مكوّن من جوهرين مختلفين، فلم يعد هناك إشكال. أثناء حياتي الجسدية لا أطلع إلا على ما يمرّ عبر حواسي، فلا غرابة إن غفلت عما لا يخضع لها. عندما ينحلّ الرباط بين الروح والجسد أُدرك بسهولة أن يفنى الثاني فيما يظل الأول موجوداً. لماذا فناء هذا يحتّم انحلال ذاك؟ بالعكس الاثنان متغايران ولم يتّحدا إلا قسراً. عندما ينتهي قرانهما يعود كل واحد منهما إلى وضعه الطبيعي. الجوهر الفاعل الحيّ يستردّ قوّته التي كان بها يحرك الجوهر الجامد الميّت. وا أسفاه! أجرب كل يوم صحة ما أقول. كلما تجاسرت على رذيلة أدركت فوراً أن نصف الإنسان فقط يعيش في هذه الحياة، أما الروح فلا حياة لها إلا بعد فناء الجسد.

75 لكن ما الحياة الآخرة؟ وهل النفس بطبعها باقية لا تفنى؟ عقلي محدود فلا أتمثّل إلا ما له حدود. أما اللاّمحدود، أو ما نسمّيه كذلك، فلا أستطيع إدراكه. ماذا أنفي إذن وماذا

أقرّ؟ كيف أستدلّ على ما لا أتصوّره؟ أعتقد أن الروح باقية لا تفنى لأني أرى في الأمر شرط الحفاظ على نظام الكون. هل يعني هذا أنها تظل بالضرورة حية إلى ما لا نهاية؟ يبقى أني أفهم تماماً أن الجسد يضمحلّ وينقرض عبر الانحلال إلى أجزاء، في حين أني لا أتصور ذلك بالنسبة لكائن عاقل، كما لا أتصور كيف يمكن أن يموت، فأفترض أنه لا يفنى أبداً. وبما أن هذا الافتراض يواسيني ولا يصدم في شيء عقلي، لماذا لا أتعلق به دون تردّد أو استحياء؟

76 أعرف روحي بواسطة مشاعري وأفكاري. أعلم أنها موجودة من دون أن أعرف ما هي، إذ لا يمكن أن أستدلّ بمفاهيم ليست في متناولي. ما أعلمه يقيناً هو أن الوعي بالذات لا يتمّ إلا بثبات الذاكرة. لكي أوقن أني حقاً أنا لا مفرّ من أن أتذكّر مَن كنتُ. إلا أن بعد الموت لا يمكن أن أتذكر كيف كنت بدون أن أستعيد في الوقت نفسه كل مشاعري وبالتالي كل أفعالي. لا شك عندي أن في هذا التذكر، إن حصل، سعادةَ الأبرار وشقاء الأشرار. أثناء الحياة الدنيا تستأثر الشهوات المتأججة بالضمير، فتحول بوسائل شتى دون الشعور بالندم. ما يرافق الفضيلة من ذلّ ومهانة يمنع الرجل الفاضل من تذوّق حلاوتها. لكن عندما تزول حواجز الجسد وستائر الحواس، ونتحرر من الأوهام المتولدة عنها، عندئذ نسعد برؤية الكائن الأعلى ونغتبط بما يتدفّق من جلاله من حقائق أزلية. لما يبهر

الجمال والكمال كل مرافق قلوبنا، ولم يعد لنا من شغل سوى موازنة ما كان مطلوباً منا، عندها يصدع صوت الضمير عالياً قوياً. فتتفاوت الحظوظ والمشاعر العجيبة الملازمة لها حسب ما قدّم كل واحد منا. فهذا راضٍ على نفسه مبتهج بما أدركت من فضائل، وذاك نادم على ما تدنس به من رذائل. لا تسألني، يا ولدي، هل هناك ألوان أخرى من السعادة والشقاء، هذا أمر أجهله. يكفيني ما أتصوره منها لأواسي نفسي على ما عانت في الدنيا وأتمنى تعويضاً عنه في الآخرة. لا أقول أن الأبرار سيكافأون على برّهم إذ أي جزاء لمخلوق فاضل فوق كونه حقق ما خُلق له. بل أقول إنهم سعداء لأن باريَهم، وكله عدل، وهبهم الحواس ليشعروا لا ليألموا. وبما أنهم لم يسرفوا في الاستمتاع بالحرية المخولة لهم فوق الأرض، ولم ينحرفوا عن القصد عمداً، ورغم ذلك قاسوا في الدنيا المحن والمتاعب، وجب تعويضهم في الآخرة. سبب قناعتي هذه ليس استحقاق الإنسان بل فضل الرب الملازم لذاته. توقعي هذا نتيجةٌ منطقية لما قررت آنفاً من أن نظام الكون لا يتبدّل وأن الخالق لا يخلف وعده(*).

(*) لا من أجلنا، لا من أجلنا يا رب
بل من أجل اسمك، بل من أجل مجدك
هب لنا الحياة، يا رب.
التوراة مزمور 115[1]

(1) يعتمد روسّو النص الفرنسي المستعمل في جنيف.

77 ثم لا تسألني هل عذاب الأشرار دائم لا نهاية له. لا علم لي بذلك أيضاً. لا أتسلى بالباطل حتى أتمادى في تساؤلات عقيمة. ماذا يهمني من أمر الأشقياء؟ لا يعنيني مصيرهم في شيء. رغم هذا لا أستسيغ أن لا يكون حدّ لعذابهم. إن كان ولا بد أن تنزل بهم عدالة الرب، فذلك حاصل في الدنيا والمكلف بإجرائها أنتم سكان الأرض بما ترتكبون من مخازٍ. توظف الشرور التي يقترفها بعضكم ضد البعض لمعاقبة المجرم المتسبّب فيها. ينتقم الرب من جرائمكم بوساطة الشهوات القابعة في قلوبكم الشجعة، الطمع، الشحّ، الطموح، النعيم الخادع المضلّ الذي تنغمسون فيه. ما الحاجة إلى تكلّف جحيم في الآخرة؟ الجحيم قائم هنا في قلوب الأشرار.

78 حيثما تتوقف حاجاتنا الزائلة، حيثما تختفي تطلعاتنا السخيفة، تضمحلّ فينا الشهوات، وتنعدم الجرائم. النفوس الزكية هل يحتمل أن يلحقها انحراف من أي نوع كان؟ لا ينقصها شيء، فلماذا ترتكب الشر؟ بعد أن تُجرد النفس من الحواس الخسيسة، وتعود سعادتها تتلخص في تأمل الكائنات، لم تعد تتطلع إلا للخير، ومن لم يظل شريراً هل يتصور أن يكون شقياً إلى الأبد؟ هذا ما يحلو لي أن أعتقده بدون أن أواصل التدقيق في الأمر. أيها الرب الرحيم والكريم، مهما يكن قضاؤك، فإني أتقبله بخشوع: إن عاقبت المسيء نهرتُ عقلي الضعيف وألزمتُه الصمت والركوع لحكمة عدلك، وإن كانت الأخرى، إن

حكمت بأن ينطفئ ندم هؤلاء الأشقياء بعد حين وتنتهي آلامهم، إن قضيت أن ننعم يوماً بهناء يشملنا جميعاً، فإني أشكرك وأحمدك. أوليس الشرير أخاً لي؟ أولم أجد نفسي في مقامه مرات عديدة؟ إن ارتفع عنه الشقاء، إن أقلع عما يرافق البؤس من نزوع إلى السوء، فليسعد مثلي. عوض أن تبعث سعادته الحسد في نفسي، ستزيدها غبطةً.

79 وهكذا بعد أن تأملت الخالق في مخلوقاته وفحصت من صفاته تلك التي تهمّني معرفتها، توصلت بالتدريج، انطلاقاً من فكرة مبتورة محدودة، إلى مفهوم أعلى وأعمّ عن ذلك الكائن العظيم. لكن كلما سمت وجلّت هذه الفكرة تلاشت علاقاتها بالعقل البشري. كلما اقترب ذهني من النور الأزلي بهرني وهجه وأعماني بريقه، فأتخلّى مضطراً عن كل المفاهيم الدنيوية التي كانت تساعدني على استحضاره. لم أعد أرى في الرب جسماً محسوساً، والعقل المدبّر للكون لم يعد حالاً فيه. عبثاً أحاول أن أجعل عقلي يتصوّر ماهيته. عندما أقول إنه وهب الحياة والحركة للمادة التي تسيّر الأجسام الحية، عندما أسمع من يقول إن نفسي من الروح وإن الخالق روح، أُنكِر القول إذ أرى فيه إهانةً لذات الرب، كما لو جاز أن يكون الخالق والنفس المخلوقة من طبيعة واحدة! كما لو لم يكن الرب وحده الكائن المطلق، الفاعل الحق، المدرك المفكر المريد بذاته، الواهب لنا الإحساسَ والفكر والارادة والحرية

والوجود! هل كنا ننعم بحرية الاختيار لو لم يشأ ذلك؟ ذاته المحجوبة عنا هي، بالنسبة لنفسنا، مثل النفس بالنسبة لجسدنا. هل خلَق المادة والأجسام والأرواح والكون؟ لا أعلم شيئاً من هذا الأمر. أحار في معنى الخلْق ولا أستطيع فهمه. أعتقد من هذا الشأن ما يسعني إدراكه. غير أني أعرف أنه كوّن الأكوان وكلَّ موجود وضعه وقدّره. لا شك عندي أنه باقٍ، لكن فهمي عاجز عن استيعاب معنى البقاء. ما الفائدة من التلاعب بألفاظ لا تؤدي لفكري أي معنى؟ ما أفهمه هو أن الرب كان قبل أن يكون أي شيءٍ، وهو باقٍ ما بقي الكون، بل حتى بعد فناء الكون إن قُدر لهذا الكون أن يفنى. أن يُوجِدَ كائن لا أتمثّل ماهيته موجوداتٍ مغايرة له أمرٌ أقصى ما يقال فيه أنه غامض مستعصٍ على الفهم. أما أن ينبثق تلقائياً الوجود عن العدم والعدم عن الوجود، المرة بعد الأخرى، فهذا تناقض واضح ومُحال جلي.

80 الخالق عاقل، لكن كيف؟ الإنسان عاقل لأنه يستدلّ فيما العقل الإلهي لا يحتاج إلى استدلال. بالنسبة له لا توجد مقدمات ولا نتائج، بل لا وجود لأية مقولة. العقل الإلهي حدسٌ كله. يدرك في آن الكائن والممكن. الحقائق كلها لديه حقيقة واحدة، الأمكنة كلها نقطةٌ والأزمنة كلها لحظة. قدرة الانسان دائماً بواسطة وقدرة الرب دائماً مباشرة. الخالق قادر لأنه مريد، لا فرق بين مشيئته وقدرته. إنه ذو فضل، لا شك في

ذلك، لكن فضل الإنسان يتجلى في عطفه على أمثاله، وفضل الخالق يتجلى في حفظ النظام، إذ به يستمر الكون ويرتبط كل جزء بالكل. الخالق عادل، هذه قناعتي، إذ عدله من آثار فضله. جور الإنسان من الإنسان لا من الرب. والفوضى الأخلاقية التي تنفي في عين الفيلسوف الرعاية الربانية تثبتها في عيني. غير أن عدل البشر إعطاءُ كل فرد ما كسب وعدل الخالق محاسبة كل فرد على ما مُنح.

81 إن صحّ أني وقفتُ تدريجياً على صفات الخالق، مع أني لم أدرك حقيقة جوهرها، فذلك بعد أن تكلفت الاستدلال وأعملت الفكر إعمالاً سديداً. لكن كوني أقرّ بها لا يعني أني أفهمُها. لم أتبيّن أي شيء منها في النهاية. أقول وأردد: الرب كذا وكذا، أشعر بذلك ثم أحتجّ له، لكن، رغم جهدي، لا أزال أجهل كيف هو كذا.

82 خلاصة القول أني كلما اجتهدت لفحص جوهر اللّامتناهي زدته غموضاً وعجزت أكثر فأكثر عن تصوره. إلا أنه بالنسبة لي موجود، وهذا كافٍ. كلما تراجع فهمي زاد خشوعي. أقول متواضعاً: يا مكوّن الأكوان، أنا موجود لأنك موجود، إن أصررت على تأمل ذلك فلأني متعطش إلى المنبع، توّاق إلى عين الحق. أعزّ ما أجني من استعمال العقل هو التفاني في

جلالك. إن عقلي لينبهر، ويحلو لي القصور والعجز إذ أشعر بعزك وجبروتك[1].

83 وهكذا بعد أن محّصت من الخارج كيف تؤثر الأشياء في حواسي، ومن الداخل كيف يستنبط وجداني الأسباب بمقدار مواهبي الطبيعية، وبعد أن استنتجت من كل هذا الحقائق الرئيسية التي تهمّني معرفتها، حان الوقت أن أتبيّن القواعد الكامنة فيها والتي ترسم ملامح سلوكي. ما هي الضوابط التي يجب عليّ أن ألتزم بها حتى أحقق الغاية من إيجادي على الأرض تماشياً مع مشيئة من أسكنني فيها. وفي هذه المسألة أيضاً سأظل وفياً لطريقتي الخاصة. لن أستنبط تلك الضوابط من فلسفة متعالية، بل سأكتشفها في سر قلبي كما كتبتها الطبيعة بحروف راسخة. أستشير قلبي في كل نازلة: ما استشعرته خيراً فهو خير وما بدا لي شراً فهو شر. أصدق دليلٍ هو الضمير. عند التردد والمعاندة فقط نلجأ إلى تمويهات العقل. أول ما يهمّ المرء العنايةُ بنفسه. رغم هذا كم مرة نسمع صوت الضمير يهمس أن الخير الذي نجنيه على حساب الغير شر. نظن في كثير من الحالات أننا نطاوع الطبيعة في حين أننا نعاكسها. نسمع ما تمليه الطبيعة على الحواس ونهمل ما توحي به إلى الفؤاد، فيكون الجزء الفاعل فينا

(1) قارن مع عبارة الغزالي: فائدة العقل وتصرّفِه أن عرّفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة.

مأموراً والجزء المنفعل آمراً. الضمير هو صوت الروح والشهوة صوت الجسد. أي عجب أن يتعارض الاثنان؟ إلى أيهما يجب أن نصغي؟ كثيراً ما يخدعنا العقل، فوجب الاحتراز منه، أما الضمير فلا يخدع أبداً. هو الدليل الأمين. مقامه من النفس مقام الغريزة من الجسد(*). من يستنير به يطيع الطبيعة، ولا يخاف

(*) الفلسفة الحديثة لا تقر إلا بما يسعها تفسيره. فلا تعتبر حقيقة تلك القوة الغامضة التي نسمّيها غريزة والتي تقود، على ما يظهر، الحيوان إلى مراده من دون تعليم سابق. يقول أحد فلاسفتنا الأكثر حصافة[1] إن الغريزة عادة خالية من أي تفكير لكنها تُكتسب بالتفكير. ومن تَتبُّع عرضع كيف يحصل هذا الأمر نستنتج أن فكر الأطفال أقوى من فكر الرجال. هذه مفارقة تستحق الوقوف عندها. دون الدخول في نقاش طويل، أسأل سؤالاً واحداً. كيف أسمّي النشاط الذي يطارد به كلبي المناجذ مع أنه لا يأكلها، والصبر الذي يبديه وهو يترقبها ساعات طويلة، والحيلة التي يمسكها بها ويجرّها فوق الأرض متى أطلّت من غارها، وبعد ذلك يخنقها ويترك الجثة حيث هي. كل ذلك دون أن يعلّمه أحد قط كيف يصيدها بل دون أن يطلعه حتى على وجودها. أطرح سؤالاً آخر أهم من الأول. الكلب نفسه، عندما هدّدته أول مرة، استلقى على ظهره ثانياً رجليه في هيئة المستعطف الأكثر إثارة لمشاعري، هيئة ما كان يحتفظ بها لو بدت مني أدنى إشارة على أني مصرّ على معاقبته. ويحك! كلبي هذا، القريب العهد بالولادة، أيكون قد اكتسب مسبقاً مفاهيم أخلاقية؟ علم من البدء ما العفو وما الحلم؟ على أية معارف سابقة توقّع تهدئتي بالاستسلام لإرادتي؟ كل كلاب الدنيا تتصرف بالطريقة نفسها تقريباً. لا أسوق هنا إلا ما يجربه كل انسان. ليبيّن لنا الفلاسفة، الذين يتحاشون بازدراء الكلام على الغرائز، ما ذكرنا انطلاقاً من المحسوسات فقط والمعلومات المكتسبة بوساطتها. ليأتوا بتفسير يرضي العاقل، وعندئذ أصمت ولن أذكر أبداً لفظ غريزة.

(1) Abbé Etienne de Condillac, Essai sur l'origine des connaissances humaines, 1746.

أبداً أن يتيه. رأى مخاطبي أني أستعدّ لمقاطعته[1]، فتابع قائلاً: هذه نقطة مهمة، اسمح لي أن أزيدها إيضاحاً.

84 حكمُنا على أفعالنا هو الذي يضفي عليها قيمةً أخلاقية. إن صحّ أن الخير خير حقاً وجب أن يكون كذلك في قلوبنا وفي أفعالنا. وجزاء العدل هو أولاً وقبل كل شيء الشعور بأدائه. إن كان الإنسان طيباً بطبعه، فلا يكون سليماً عقلاً وجسداً إلا إذا تحلّى بتلك الفضيلة. أما إذا كان الأمر بعكس هذا، وكان الشر من جبلّة البشر، فلا ينفك عنه إلا بفساد خلقه، إذ تصبح الطيبوبة عيباً فيه. إن كان القصد من وجود الإنسان أن يُلحق الضرر بأخيه الإنسان، كالذئب المجبول على عقر فريسته، عندها يعود الإنسان الشفيق، كالذئب الحنين، حيوان مشوّه منحرف، وتكون الفضيلة هي التي تستوجب الندم.

85 لنثوب إلى نفسنا، أيها الشاب، ونفحص بعيداً عن كل غرض شخصي، أين نجنح طبعاً. أي مشهد يدغدغ عواطفنا، شقاءُ أم سعادة الآخرين؟ أي عمل يروقنا ويثلج صدرنا بعد القيام به، الإحسانُ أم التعدي؟ من يستأثر باهتمامنا عندما نشاهد عملاً مسرحياً؟ هل نفرح لأفعال الغدر والخيانة؟ هل نذرف الدمع على مرتكبيها؟ يقال لنا: همّ كل واحد منا مصلحته الخاصة. لكن،

(1) هنا تذكير بأن النص الذي نقرأه منقول. قام بنقله معلّم الشاب أميل عن رسالة تلقّاها من مواطن له صاحب القس الجبلي.

عندما نحزن ما بالنا نتأسّى بحلاوة الصداقة وعذوبة الحنان؟ وحتى في الأفراح، إن لم يشاركنا أحد، لماذا نشعر بالوحشة والضيق؟ إن كان قلب البشر يتحاشى الأخلاق، من أين له هذا الإعجاب المفرط بأعمال الأبطال، هذا الوله بأصحاب الهمم العالية؟ وهذا التحمس المتجدد للفضيلة، ما علاقته بمصلحة الفرد؟ لماذا أفضّل أن أكون في مقام كاطون الذي انتحر عوض قيصر الذي انتصر؟[1] انزعْ من قلب الإنسان حب الجمال تسلبْ الحياة روعتها وجاذبيتها. من طغت على نفسه الشهوات الخسيسة وجرّدتها من كل عاطفة رقيقة، فتخندق داخل ذاته حتى لم يعد يحب أحداً أو ينجذب إلى سواه، هذا البئيس لا فرحة تحرك أبداً قلبه الجامد، ولا خفقة حنان تبلّ أبداً عينه الجافة. لا شعور له، لا حياة له، فهو ميّت قبل أن يموت.

86 ثم، مهما ارتفع عدد الأشرار فوق الأرض، قلّ منهم من يرقّ شعوره إلى حدّ أنه يخلو من أي فضل أو عدل لا يخدم مصلحته. الجور لا يستهوي المرء إلا إذا جرّ إليه نفعاً ما. عدا ذلك كلنا يتوخى حماية البريء. نرقب في زقاق أو على الطريق عمل عنف أو ظلم، في الحال نغضب ونستقبح الحادث، فنهبّ لمناصرة المظلوم، لولا أن القانون العام يمنعنا من حماية الضعيف بأنفسنا. بالمقابل، إذا ما شاهدنا من أحدٍ مبادرةً تدلّ

(1) كاطون، أحد زعماء الحزب الجمهوري في روما، حارب قيصر المتطلع إلى الديكتاتورية، وانتحر بعد انهزام حزبه سنة 46 ق.م.

على البر والإحسان كم يكسب فاعلها حبّنا وإعجابنا! من منا لا يقول في نفسه: آه لوددت أن أفعل ما فعل! ماذا يعنينا من أمر شخص عاش قبل ألف سنة، جار أم عدل؟ ومع ذلك حوادث الماضي البعيد تثير اهتمامنا كما لو كانت تجري اليوم. جرائم كاتيلينا[1]، هل تمسّنا في شيء؟ هل أخشى أن أعدّ بين ضحاياه؟ لماذا إذن أمقته كما لو كان معاصراً لي؟ لا نعادي الأشرار لأنهم يسيئون لنا، بل نعاديهم لأنهم أشرار. لا نطلب السعادة لنا وحدنا بل لغيرنا أيضاً، وإن لم تحدّ سعادتُهم سعادتنا، فإنها تعززها. وأخيراً نشفق، رغماً عنا، على من خانهم الحظ. نشاهد سوء حالهم، فنتألم. حتى أنذل المجرمين لا يتنكرون بالكامل لهذه العاطفة، فيناقضون بها منطق سلوكهم العام. اللص الذي يسلب المارّة أمتعتهم يغطي عورة المسكين، والقاتل الأكثر ضراوة يهبّ لمساعدة رجل متفانٍ.

87 يحدثنا البعض عن صرخة الضمير التي تؤنب المجرم فتقود إلى اكتشاف سرّ جريمته. من منا لم يسمع قط هذا الصوت المقلق؟ هذه تجربة يعرفها الجميع. ومع ذلك يُطلب منا أن نتجاهل هذا الشعور المزعج. لِنُطِع الطبيعة وسنعرف كم حكمها ليّن متسامح، لنستمع لنصائحها وسنرى كم حلو الرضى على النفس والإقرار أنها على صواب. الظالم دائماً خائف مترقب، لا

---

(1) تآمر على الجمهورية عندما كان شيشرون قنصلاً، فأفشل هذا الأخير محاولته. توفي سنة 62 ق.م.

ينبسط إلا إذا تغافل عن نفسه. يُلقي حواليه نظرات قلقة ويتعلق بأي شيء يسليه. لولا هجاؤه المر، لولا سخريته اللاذعة، لما فارقه الغمّ. عزاؤه الوحيد الضحك الهازئ. بالمقابل الرجل العادل ينعم بالطمأنينة والرضى على نفسه. إن ضحك فليس عن غِلّ بل عن غبطة كامنة في ذاته. أكان بين الأصحاب أو على انفراد، فهو مبتهج على الدوام. لا ينتظر النشوة ممن يحيطون به، بل هو الذي يجود بها عليهم.

88 لنلق نظرة على شعوب الأرض ولنتصفح أخبارهم. كم مختلفة شعائرُهم الدينية! بعضها وحشي صادم. كم متباينة أعرافهم وعاداتهم! رغم هذا نجد عند الجميع وفي كل مكان، المفاهيم نفسها عن العدل والمروءة، التعريف نفسه للخير والشر. كانت آلهة الوثنيين القدامى تستحق المقت والازدراء، لو سكنوا الأرض لعوقبوا كما يعاقب المجرمون. لا همّ لهم سوى ارتكاب الفظائع وإشباع أخس الشهوات ثم تقديم ذلك للبشر كمثل أعلى للسعادة. عبثاً كانت هذه الشناعة المزينة بهالة التقديس تنزل من السماء إلى الأرض، فلا يتقبّلها قلب البشر، بغريزته الأخلاقية، إلا بالرفض البات. كان القدماء يحتفلون بجوپيتر الخليع ويحترمون زينوقراط العفيف، وكانت لوكريزيا المحصنة تهلّل لڤينوس الفاجرة. كان المواطن الروماني الشجاع يتقرب بالذبائح لإله الذعر، يبتهل للرب الذي بتر عضو أبيه ويموت هو في صمت بيد والده. هؤلاء الرومان، وهم أشرف

شعب وُجد على الأرض، عبدوا أحقر آلهة! لكن صوت الطبيعة الطاهر كان أقوى من أوامر الأرباب. ملك الأرضَ ونفى إلى السماء الجريمة ومرتكبيها[1].

89 يوجد إذن في سر النفوس مبدأ يولد مع الإنسان، على ضوئه يحكم الفرد، ولو صدم ذلك ميوله الشخصية، على تصرفاته وتصرفات غيره، فينعتها بالصالحة أو بالفاسدة. وهذا المبدأ هو الذي أسمّيه أنا الضمير.

90 فما إن أنبس بكلمة ضمير حتى يتصايح أدعياء الحكمة محتجّين: [أحكام الضمير]؟ ما هي إلا أخطاء من عهد الصبا، أوهام موروثة عن التربية الأولى! هذا ما يتفق عليه المعارضون. يقولون: لا يوجد في ذهن البشر إلا ما أفاده من تجربة خارجية، وكل قيمة ننسبها إلى شيء ما مشتقّة من أفكار مكتسبة. بل يغالون إلى حدّ نفي ما أجمعت عليه الأمم إجماعاً واضحاً عاماً. يفندون هذا الإجماع بشواذ مبهمة لا يعرفها أحد سواهم كما لو

---

(1) جوبيتر، أب السماء، رب الأرباب في الميثولوجيا اليونانية.
زينوقراط، فيلسوف تلميذ أفلاطون، عاش من سنة 396 إلى 314 ق.م.
لوكريزيا، امرأة رومانية نبيلة عفيفة اغتصبها ابن ملك روما سنة 509 ق.م. فانتحرت وكان انتحارها سبب سقوط الملكية.
ڤينوس، إلهة الحب.
يعتمد هنا روسّو تحليلاً أنثروبولوجياً عميقاً ومثيراً لأصل الأخلاق وعلاقة هذه بالطقوس الدينية.

صح أن ينفي استثناءٌ واحد توافق البشر، أو أن ينعدم الجنس بظهور أفراد مشوّهين. ماذا ينفع مونتين[1] الشكاك ما تكبد من مشاقّ للعثور في أقاصي الدنيا على عادة يتيمة تنافي كل دلالات العدالة؟ ماذا يفيده أن يصحح أقوال رحالة مغمورين ويضعّف شهادة كتّاب مشهورين؟ هل لعادات شاذة غير محققة وعائدة إلى أسباب ظرفية خفية علينا أن تخدم استقراءً متواتراً لما توافقت عليه كل الأمم، مفترقةً في كل شيء سوى موضوع الإجماع؟ مونتين، يا مونتين، تتباهى بصدقك وصراحتك، فكن صادقاً صريحاً، إن كان ذلك في وسع فيلسوف، وقل لي هل يُوجد على وجه البسيطة بلد يحرم الوفاء بالعهد، الحنو، الإحسان، الكرم، يزدري الخير ويمجّد الغدر؟

91 يقولون: كل فرد يساهم في الصالح العام بقدر ما يخدم مصلحته الخاصة، لكن ما القول في حال رجل عادل يساهم بما يضره؟ وما معنى أن يتعمّد المرء الموت من أجل مصلحته؟ لا أحد يعمل إلا لما يعود عليه بالخير، هذا صحيح، لكن إذا كان لا بد من اعتبار خير أخلاقي لا نشك في وجوده، عندئذ المصلحة الأنانية لا تبرر إلا أعمال الأشرار. بل يمكن القول إن هذا أقصى ما تؤدي إليه هذه النظرية. أية فلسفة بشعة هذه التي تُحوّل الأفعال الفاضلة إلى مشكلات محيرة لا انفلات

---

(1) Michel de Montaigne, Essais, 1580.

منها إلا بانتسابها إلى مقاصد دنيئة ودوافع ذميمة، بالحط من قدر سقراط والافتراء على رغولوس[1]؟ إن قُدّر لهذه المذاهب أن تنمو بيننا، فسيرتفع على التو صوت الطبيعة، يعززه صوت العقل، حتى لا يسمح لأي من أنصارها أن يدّعي أنه قال ما قال عن حسن نيّة.

92 لا أود الشروع في نزاعات ميتافيزيقية تفوق طاقتنا الاثنين والتي لا تسفر في النهاية عن أية نتيجة. قلت لك آنفاً إني لا أروم التفلسف معك بقدر ما أريد حثك على استشارة قلبك. لو أجمع الفلاسفة على تسفيه رأيي وشعرت أنت في نفسك أني على حق، فهذه غاية ما أطمح إليه.

93 يكفي في هذه الحال أن أجعلك تميّز بين الفكر المكتسب والشعور الفطري، إذ الشعور فينا سابق على العلم. كما أننا لا نقصد الخير ونعرض عن الشر بالتعلم بل بعزيمة أودعتها فينا الطبيعة، فإن الإقبال على الطيّب والنفور من الخبيث شعوران طبيعيان فينا بقدر ما هو طبيعي حب الذات. ما يصدر

---

(1) سقراط، الفيلسوف الأثيني الشهير، أب الفلسفة الأخلاقية. أدين لأسباب سياسية وحكم عليه بالإعدام. مات مسموماً سنة 399 ق.م.
رغولوس أحد قواد روما في حربها ضد قرطاج. سقط بين أيدي أعدائه، فأرسلوه إلى روما ليتوسط بين الدولتين. خطب في مجلس الشيوخ داعياً إلى عدم قبول الصلح ثم عاد إلى قرطاج وتحمّل بشجاعة التعذيب والقتل. توفي سنة 265 ق.م.

عن الضمير ليس استنتاجاً بل شعور. رغم أن أفكارنا تأتينا كلها من الخارج، فإن المشاعر التي تضيف إليها قيمةً ما تنبع من أنفسنا. بل نميّز بين الأشياء، نتقبل ما يوافقنا منها ونعرض عن غيرها.

94 الوجود بالنسبة لنا يعني الشعور والشعور سابق لا محالة على الفكر إذ شعرنا قبل أن نفكّر(*). أياً كان المتسبب في إيجادنا، فإنه زرع فينا، حتى نحافظ على ذاتنا، إحساساتٍ وعواطفَ مواتية لها. لا بد من الاعتراف على الأقل أن هذه الإحساسات والعواطف مطبوعةٌ فينا. تلك التي تخص الفرد هي حب الذات، تجنب الألم، استفظاع الموت، التطلع إلى السعادة. وبما أن الانسان، على ما يبدو، اجتماعي بطبعه، أو على الأقل مؤهل لذلك، فلا بد لتحقيق هذا الغرض، أن تكون مطبوعةً فيه أيضاً عواطف تجاه النوع البشري، إذ لو اقتصرنا على الحاجيات المادية لقلنا إنها تؤدي إلى التنافر أكثر مما تدفع إلى التظافر. على أساس هذه المجموعة من روابط الإنسان بذاته وبإخوانه ينشأ واعز الضمير. لا يكفي أن يعرف المرء الخير لكي يحبّه. معرفة الخير ليست جبِلّية في الإنسان، لكن بمجرد أن

(*) من منظور معيّن الأفكار عواطف كما أن العواطف أفكار. ينطبق الاسمان على أي محسوس يشغلنا في آن بالموضوع الخارجي وبالنفس المتأثرة به. اهتمامنا بهذا الأمر أو ذاك هو الذي يحدّد الاسم المطابق. إن انشغلنا أولاً بالموضوع قبل أن ننتبه للنفس بعد تأمل، فهذه فكرة. ان انتبهنا أولاً لتأثرنا بالواقع ولن نَعِ بهذا الواقع إلا بعد حين، فهذه عاطفة.

يتبيّنه عقله ينجذب إليه ضميره. هذا الشعور هو المطبوع في الكائن البشري.

95 وهكذا ترى، ولدي العزيز، أني لا أوافق على القول إنه يستحيل إثبات الضمير ومبادئه الأخلاقية اعتماداً على الطبيعة مباشرة دون اللجوء إلى الاستدلال العقلي. حتى لو صحّت الاستحالة، فالاستدلال غير لازم. لأن من ينفي وجود الضمير، كأساس للأخلاق، وهو ما أجمعت عليه واعترفت به الانسانية، لا يقدم أي برهان على ما يدّعي. يقول بعدم الوجود كما نقول نحن بوجود الضمير. القولان متعادلان. لكن لنا عليهم ميزة، تتمثّل في صوت الوجدان، في شهادة الضمير لنفسه. إن بهرنا في البدء التمحيص العقلي لهذه المسألة وجعل الأشياء تشتبه علينا، فما علينا إلا أن ننتظر قليلاً حتى ينقشع الضباب وتتضح الرؤية. وعندها ندرك المسائل في ضوء العقل تماماً كما بدت لنا أولَ وهلة على هدى الطبيعة. بل لنقل ببساطة وتواضع إن علينا أن نكتفي بما نستشعره أول الأمر من أنفسنا إذ نعود إليه دائماً بعد النظر ما دام العقل يسير على الطريق السوي.

96 الضمير! الضمير! غريزة ربانية وصوت علوي لا يخفت. هادٍ أمين لكائن جاهل محتاج، كما أنه نبيه حر. بالضمير يميّز الإنسانُ الخيرَ من الشر ولا يخطئ كما لو كان في مقام الرب. لولا الضمير لما أحس بأي تفوّق على الحيوان،

سوى موهبة بئيسة تدفعه من زلة إلى أخرى بواسطة نظر بلا ضوابط وعقل بلا مبادئ.

97 ها نحن، والحمد للرب، قد تخلصنا من هذه العدة الفلسفية الفظيعة المروعة. أولا نستطيع أن نعيش من دون أن نكون علماء؟ ليس واجباً علينا أن نضيع حياتنا في دراسة الأخلاق، إذ نجد بدون عناء دليلاً أصدق يقودنا في متاهات الآراء البشرية. لكن وجود الدليل لا يكفي، لا بد أن نعرفه وأن نطيع أوامره. يخاطب قلوبنا، فلماذا لا يستمع إليه إلا قلّة منا؟ الواقع هو أنه يكلمنا بلغة الطبيعة التي تظافرت الجهود على أن ننساها. ضميرنا خجول، يفضل العزلة والراحة، يهاب مخالطة الجمهور ويزعجه الضجيج. تلك الأحكام السوقية التي تمثل الضمير في نظر البعض هي في الحقيقة ألدّ أعدائه. تطارده، تسكته، تغرقه في الصخب أو تضعفه حتى لا يكاد يسمع. يتجرأ على تقليده التعصب الديني، فيأمر في زيّه باتكاب الفظائع. ثم بعد أن يصدّ ويهان المرة تلو الأخرى ينفر منا ويُحجم عن مخاطبتنا. يجب علينا، بعد هذا الازدراءالطويل، أن نبذل لاستدعائه الجهد نفسه الذي بذلناه لإبعاده.

98 كم مرة، وأنا غارق في بحوثي، كنت أسأم الفتور الذي كنت أشعر به! كم مرة تشبّعت مقدمات تأملاتي بسموم الملل والكآبة حتى عدت لا أتحمّلها. فأصبح قلبي لا يتتبّع

الحقيقة إلا بهمّة متهاونة. أقول لنفسي: لماذا تلهثين وراء شيء لا وجود له؟ كمال الأخلاق وهمٌ، كل الطيبات محصورةٌ في متعة الحواس. صدّقني، إن حصل وعجزتَ ولو مرةً واحدة عن تذوّق لذة الروح، كم يصعب عليك استرجاعها! وكم تتضاعف الصعوبة إن لم يسبق لك أن جرّبتها. إن وُجد على وجه الأرض إنسان فسد عقله إلى حدّ أنه لم يقم طول حياته بفعل يغبط نفسه عليه ويرضى عليها كلما خطر بباله، فلا وسيلة لذلك الإنسان أن يعرف أبداً ذاته. يجهل على الدوام أي فعل من أفعال الخير يروق له، فيظل شريراً بالضرورة وشقياً باستمرار. لكن هل تعتقد أنه يوجد في الدنيا فرد فاسد الخلق إلى حدّ أنه لم يغرِه قط فعل الخير؟ هذا الإغراء فطري وحلو إلى درجة أن لا أحد يصمد له في كل مناسبة، واللّذة التي يخلفها في النفس فعل الخير تكفي للإغراء به مرة بعد أخرى. الصعوبة كلها في الاستجابة له أول مرة. هناك ألف عارض يمنع من الإصغاء لنداء القلب. حذَرٌ خادع يحصر مفهوم الخير في نطاق الذات، فيلزم القيام بألف جهد شاق لتجاوز هذا الحاجز. متعةُ الإحسان في إتيانه. لا يتذوقها إلا المحسن بعد أن يكون يستحقها. لا شيء أحبّ إلى النفس من الفضيلة، لكن لا يحبها إلا من تحلّى بها. عندما يروم المرء الإمساك بها، تظهر له، كما في أمثولة پروتيوس[1]، على

---

(1) شخصية خرافية، ابن بوسيدون (Poseïdon)، إله البحر. يخبر عن الغيب. إذا سقط في يد البشر، وحتى لا يكشف لهم عن أسرار الغيب، يغير شكله باستمرار. لذا أصبح مثالاً للمنافق.

ألف صورة مخيفة، ولا تكشف عن وجهها الحقيقي إلا لمن ألحّ في طلبها ولم يتركها تنفلت من قبضته.

99 ظلّت نفسي مدة طويلة مسرحاً لصراع متواصل بين العاطفة التي تعبّر عن الصالح العام والعقل الذي ينيط كل واقعة بالذات. وكان التردد بين العقل والوجدان سيلازمني إلى الأبد، أحب الخير وأفعل الشر معاكساً باستمرار ميول نفسي، لولا أن مدارك جديدة أنارت فؤادي. والحقيقة التي ثبّتت رأيي أقرت سلوكي في الوقت نفسه وجعلتني أتّفق مع ذاتي. عبثاً يحاول المرء تأصيل الفضيلة في معطيات العقل، على أية دعامة صلبة يعتمد؟ يقولون إن الفضيلة هي حب النظام. هل يجب، هل يمكن أن يسيطر ذلك الحب على ميل النفس إلى اللذة؟ ليأتوا ببرهان واحد، واضح مقنع، على تفضيل الأول على الثاني؟ في النهاية لا نجد في مبدئهم المزعوم سوى تلاعب بالألفاظ. أستطيع أن أدّعي أنا أيضاً أن الرذيلة هي حب النظام، لكن بمفهوم مخالف. أينما كان شعور وفطنة كان نظام أخلاقي. إلا أن نظام الفاضل يتمركز حول الجماعة في حين أن نظام الفاجر يدور حول ذاته هو. هذا يضع نفسه في قلب الكائنات وذاك يقيس مجاله ثم ينتصب على حافة الدائرة، متساوقاً إذن مع مركز الكل، أعني الخالق، ومع جميع الدوائر المحيطة به، أعني الكائنات. إن لم يكن ربٌّ، الفاجر وحده عاقل والفاضل عبيط.

100 أتمنى، يا ولدي، أن تعرف يوماً مثلي كم يشعر المرء بالراحة عندما يكون قد وقف على تفاهة كل النظريات البشرية، ذاق مرارة كل الشهوات، ووجد أخيراً كم قريبٌ منه باب الحكمة، جزاء جهوده في الدنيا، وأصلُ السعادة التي طالما يئس من وجودها! تلك الواجبات التي فرضتها عليّ الطبيعة، والتي كانت قد امّحت من فؤادي بسبب ما تعرضت له من ظلم البشر، ها هي العدالة الربانية ترسمها مجدداً في قلبي، فتأمرني بأدائها وتساعدني على القيام بها. لم أعد أرى في شخصي سوى مخلوق وآلة بين يد الكائن الأعظم الذي يشأ الخير ويفعله، يوفره لي إن وافقتْ إرادتي مشيئتَه وإن أحسنت استخدام حرية الاختيار التي شرّفني بها. أريد النظام الذي قرره الخالق، يقيناً مني أني سأستفيد منه وأسعد به يوماً. أية سعادة أتم من الشعور بأني مشمول بنظام كلّه خير؟ إن لحقني ضرّ صبرتُ، علماً بأنه زائل، يأتيني من الجسد الذي هو غيرُ نفسي. إن فعلت حسنةً، بعيداً عن الأنظار، أيقنت أنها لا تخفى على الخالق، أسجلها في الدنيا واثقاً أنها ستُحسب لي في الآخرة. إن مسّني ظلم أقول ان الكائن الحق الساهر على كل شيء سيعرف كيف يجازيني عن احتماله. مطالب جسمي، مشاغل حياتي، كل ذلك يساعدني على تقبّل فكرة الموت إذ تقلّل من الروابط التي لا بد لي من فصمها عندما يتحتم عليّ فراق كل شيء.

101 لماذا تخضع النفس للحواس، فتظل سجينة جسد

يستعبدها ويقهرها؟ كيف لي أن أعلم هذا السر؟ هل أنا شريك في قرارات الرب؟ لكن أستطيع أن أقترح بكل تواضع بعض التخمينات. لو ظلت الروح البشرية طاهرة طليقة، أي فضل لها أن تساير نظام الكون إذ لا مصلحة لها في تقويضه؟ سيسعد الإنسان، لا شك في ذلك، لكن لن يدرك ذروة السعادة، أي كرم الفضيلة والرضى على النفس. سيكون في رتبة الملائكة، أقل إذن من رتبة الإنسان الفاضل. النفس متّصلة بالجسد بروابط قوية ومحجوبة عنا، همّها الأول أن تحافظ على سلامة ذلك الجسد، فتضطرّ إلى إرجاع كل شيء إليه وملازمة المصلحة الخاصة به، وإن خالفت نظام الكون الذي تعرفه وتحبه رغم كل الموانع. في هذه الحال، إن استفادت كما يليق من الحرية المخولة لها، كسبت بذلك الجزاء والثناء معاً. تستعدّ للسعادة الأبدية بمعاكسة شهوات الدنيا وبالوفاء لإرادتها الأصلية.

102 حتى في حال الدناءة التي نعيش فيها على هذه الأرض، إن صح أن ميولنا الأولى تظل مسايرةً للعدل والحق، وأن الرذائل تنشأ منا، ما بالنا نتذمر ونقول إنها مسيطرة علينا؟ لماذا نلوم الرب على الشرور التي تولدها أفعالنا وعلى أعداءٍ لنا نمدّهم نحن بالسلاح ضدنا؟ آهٍ، لنكفّ عن إفساد الإنسان وعندها سيكون على الدوام طيباً بلا تكلّف، سعيداً بلا ندم. من يدّعي أنه ارتكب الجريمة مُكرهاً كذاب بقدر ما هو شرير. هلا رأى أن الضعف الذي يشكو منه متأصل فيه، أن مبدأ السوء من

اختياره، وأن إصراره على الرضوخ للمغريات هو الذي جعله ينجرّ إليها رغماً عنه في النهاية ويعيرها بالتدريج قوةً لم يعد قادراً على مقاومتها! صحيح أنه لم يعد في وسعه ألا يكون شريراً وضعيفاً، لكن كان في وسعه بادئ الأمر أن لا يكون كذلك. آهٍ، كم يسهل علينا في الحياة الدنيا، كبحُ الشهوة وضبط النفس لو عرفنا، عند انفتاح فكرنا وقبل أن تتكرس فينا عادات السوء، كيف نوجهها نحو الأشياء التي يجب معرفتها لكي تتبيّن قيمة الأشياء الأخرى التي تظل مستورة عنا. ذلك لو كان هدفنا حقاً هو المعرفة لا لنفتخر على الأقران بل لنتحلّى بالخير والحكمة حسب سجيّتنا حتى نقوم بالواجب ونسعد به. يبدو لنا هذا الترويض شاقاً ومملاً لأننا نُقبل عليه بعد أن تكون الرذائل قد أفسدت طبعنا ونكون قد أطلقنا العنان لشهواتنا. نحكم حكماً قطعياً على الأشياء ونحدد قيمتها قبل أن نقف على حقيقة الخير والشر، ثم نلجأ إلى هذا الميزان المائل لنزن به الخلق، فلا نعزو لأي شيء قيمته الصحيحة.

103 هناك سنّ لا يزال فيه قلب البشر غير مقيد بشيء، فهو متحفز قلق متعطش للسعادة من دون أن يعرف ما هي. يبحث عنها بفضول غير رصين. ينخدع بالحواس فيتعلق بصورة تافهة يظن أنها ضالّتُه في حين أنها سراب محض. راودتني طويلاً مثل هذه الأوهام، وبما أني، بكامل الأسف، اكتشفتها متأخراً، استحال عليّ التحرر منها. ستلازمني ما صاحبني هذا

الجسد الفاني الذي هو مصدرها. لا تزال تُغويني لكنها لم تعد تغريني. أعرف تماماً حقيقتها. أطيعها وأنا مستخفّ بها. لا أرى فيها السبيل المؤدي إلى السعادة بل المانع من إدراكها. أستبطئ اللحظة التي أتحرر فيها من قيود هذا الجسد، وأستعيد هويتي حقاً بلا تناقض ولا انشطار، فلا أحتاج لأكون سعيداً إلى أي شيء سوى ذاتي. في انتظار تلك اللحظة أشعر من الآن بنوع من الغبطة إذ أحتقر كل ما يصيبني في هذه الأرض من آلام، وأنظر إلى حياتي هذه كما لو كانت غريبة عن كياني. كل خير أجنيه فيها يأتيني من ذاتي ومنها وحدها.

104 ولكي أرتقي من الآن، وقدر الإمكان، إلى هذه الدرجة من البهجة والتمكين والحرية، أروّض نفسي على تأمل أعلى مراتب الخلق. أفكر في نظام الكون، لا بهدف تأويله حسب نظريات عقيمة، بل لأزيد إعجاباً بحكمة صانعه وإقبالاً على عبادته. أحاوره، أرعى مواهبي بتمثل ربوبيته، أنشرح لذكر جوده، أبارك حسناته، لكني لا أستجديه قط. وماذا أطلب منه؟ أن يغيّر مجرى الأمور؟ أن يحقق الخوارق لفائدتي؟ واجبي هو أن أحب فوق كل شيء النظام الذي أراده بحكمته ويحفظه برعايته، وأطمع أنا أن يختل ذلك النظام من أجلي؟ هذه أمنية خرقاء تستحق العقاب لا المكافأة. كما لا ألتمس منه القدرة على إنجاز الخير إذ سبق أن وهبني ما أطلب. أولم يهب لي الضمير لأحب الخير، العقل لأعرفه والحرية لأختاره؟ إن فعلت الشر فلا

عذر لي. أفعله بمشيئتي. أن أطلب من الخالق أن يغيّر مشيئتي يعني أن أطالبه بأن يفعل هو ما أنا مُطالب بفعله، أي أن يقوم هو بالعمل وأتقاضى أنا الأجرة. أن أتبرم من حالي معناه أني لا أرضى أن أكون بشراً، أي إني أتوخى الفوضى والشر. ربّي أنت منبع العدل والحق، أنت الرحيم الكريم، أضع كل ثقتي فيك. أسمى ما يتوق إليه فؤادي هو أن تتحقق مشيئتك. أشاء ما تشاء، أفعل ما تفعل، أتقبّل ما تجود به، فأشعر أني أشارك مسبقاً في السعادة القصوى التي هي جزاء الإحسان.

105 أتّهمُ نفسي على حق. لذلك أطلب من فضل الخالق، بل أنتظر من عدله، شيئاً واحداً، هو أن يردَّني إلى الصواب إن غويتُ غوايةً مردية. أرى أن نيّتي حسنة، لكن لا أعتقد أني معصوم. الآراء التي تبدو لي في غاية الصحة والثبوت قد تكون أكاذيب. من منا لا يتشبث بدعواه؟ كم عدد الرجال المتفقين على كل شيء؟ الوهم الذي يُضلّني يأتي من نفسي، فلا يعصمني منه إلا الخالق. حاولت جهدي لأدرك الحق، لكن منبعه أبعد بكثير مما أستطيع. ما ذنبي أنا إن خانتني قواي وتوقفت دون الغاية؟ على الحق إذن أن يتقرب مني.

106 كان القس الطيب قد تكلم بحماس، فظهر على محياه التأثر كما ظهر عليّ. خُيّل إليّ أني أستمع إلى أورفيوس[1]

(1) شخصية سابقة على عهد هومروس. يُنسب إليه اختراع الشعر والموسيقى.

الرباني وهو يرتّل أُولى أناشيده ملقناً للبشر عبادة الآلهة. رغم هذا سنحت لي اعتراضات كثيرة على أقواله. لم أفصح عن أي منها لأنها كانت محرجة أكثر منها مفحمة، ولأن قناعتي كانت إلى جانبه. بقدر ما كان يطلعني عما في ضميره كان ضميري أنا يؤكد ما يقول.

107 قلت له: الجديد فيما تفضلت به، حسب رأيي، هو الكشف عما تجهل لا الإفصاح عما تعتقد، إذ معتقدك هو على العموم مذهب الربانية أو دين الفطرة الذي يتعمد النصارى رميه بالزندقة والكفر مع أنه يمثل العكس تماماً. أما أنا في وضعي الحالي من قضية الإيمان، عليّ أن أرتقي إلى الأعلى لا أن أنحدر إلى الأسفل حتى أستطيع أن أتمثل آراءك السامية. يصعب، في تقديري، على أيّ كان أن يثبت على مواقفك إن لم يكن في مستوى حكمتك. لذلك أود أن أستشير ضميري حتى أكون صريحاً معك كما كنت صريحاً معي. لا وسيلة لي لموافقتك سوى اللجوء إلى الوجدان، وهذا، كما علّمتني ذلك، لا يستنطق في دقيقة بعد أن أسكِت دهراً. أسرّ مقولاتك في قلبي لأتأملها على مهل. أراجع نفسي، فإن خرجتُ من مراجعتي مقتنعاً مثل اقتناعك أنت بها، ألقيت إليك وحدك بزمام إرشادي

= الأورْفية نحلة دينية، قريبة من الفيثاغورية، ظهرت لاحقاً وأضافت إلى أورفيوس النبوءة. لذِكر هذا الاسم في النص دلالةٌ تعزز الإشارة إلى عظة الجبل.

وكنتُ تلميذاً لك إلى آخر حياتي. لكن عليك أن تواصل حديثك. لم تعرض عليّ إلا نصف ما يجب أن أعرفه. كلّمْني عن الوحي والكتب المنزلة، عن متشابهات الإيمان التي حيّرتني غوامضُها منذ صباي، لا أستطيع أن أفهمها أو أؤمن بها، أن أقبلها أو أن أرفضها.

108 عانقني القس قائلاً: أجل يا بني سأتمّ ما بدأت وأطلعك على كل، لا على جزء فقط، مما أكنّه في صدري. لكن كان ضرورياً أن تقول بصراحة إنك ترغب في الاطلاع على فكري حتى أبديه لك بلا تحفّظ. إلى الآن لم أقل لك إلا ما أيقنت أنه نافع لك، زيادة على أني مقتنع به كامل الاقتناع، أما ما سأحدثك عنه من الآن فصاعداً فأمره مختلف. لا يتناول إلا مواضيع مربكة ممتنعة غامضة لا يجني الناظر فيها إلا الشك والريبة. لا أفصل في مسائلها إلا بحذر شديد، مبرزاً تساؤلات لا آراء. لو كنتَ يا ولدي قد تغلبتَ على الارتباك الذي يميّز الآن وضعك، لكان أسلم لك أن لا أكشف لك عن موقفي، لكن في حالك الراهن الأصلح لك أن تفكر كما أفكر(*). ثم تذكّر دائماً أن ما أعرضه عليك هو مجرد اجتهاد نظري، فلا تعيره قيمة أكبر مما يستحق. قد أخطئ ولا أعي بالخطأ. عندما يجادل المرء يميل إلى استعمال أسلوب تقريري، لكن لا تنسَ أبداً أن ما

(*) هذا، في رأيي، ما قد يقوله القس الطيب لجمهور اليوم.

سأقوله لك هو في الواقع موضوع تساؤل. الحقيقة ابحثْ عنها أنت، أما أنا فلا أعدك إلا بالصدق وحسن النيّة.

109 قلتَ إني لم أتجاوز فيما عرضته عليك ما يُعرف بدين الفطرة[1]. أستغرب أن يدّعي أحد أننا في حاجة إلى دين آخر. من أين لي أن أعرف تلك الحاجة؟ ولِمَ أُلام إن عبدتُ الخالق حسب التعاليم التي بثّها في ذهني والمشاعر التي أفعم بها قلبي؟ أي سلوك أنصع، أي معتقد أنفع للمخلوق، وأكثر تشريفاً للخالق، أنالهما من اعتناق شرائع منزلة ولا أكتسبها أبداً إن اكتفيت باستغلال مواهبي؟ بيّن لي ما يمكن أن يضاف حمداً للرب، خدمةً للمجتمع ولمصلحتي الخاصة، إلى الواجبات التي حددتها لي الطبيعة؟ أية فضيلة تنشأ عن مناسك مستحدثة ولا تنتج عن مناسكي أنا؟ أسمى صورة نكوّنها عن الخالق ندركها بالعقل وحده. لننظر إلى الكون، لننصت إلى صوت الوجدان، أولم يقل لنا الرب، لبصرنا، لضميرنا، لعقلنا، كل ما أراد؟ ماذا يمكن الإنسان أن يضيف إلى ذلك؟ مكاشفاته لم تفعل سوى الحط من قدر الخالق إذ تنسب إليه نزوات البشر. أرى أن التعاليم الخاصة بالشرائع لا توضح أسرار الكائن الأعظم بقدر ما

---

(1) دين الفطرة (la religion naturelle) هو وقاية ضد انتشار الزندقة المؤدية إلى الإباحية والفوضى الأخلاقية. في ظروف أوروبا القرن الثامن عشر لم يعد الخيار بين الكاثوليكية والعلمانية بقدر ما أصبح بين دين الفطرة (عقيدة القس) والإلحاد.

تزيدها غموضاً، لا تصورها لنا صورة أسمى بل أكثر ابتذالاً. تضيف إلى أسرار الكون العصية على الفهم تناقضات سخيفة. تعلّم الناس الغرور والتعصب والقسوة. لا تقيم السلم على الأرض بقدر ما تنشر فيها الخراب بالحديد والنار. أسأل: ما الفائدة؟ فلا أهتدي إلى جواب ولا أرى سوى جرائم الإنسان وشقاء الجنس البشري.

110 يقال: كان لا بد من الوحي لكي نعرف على أية صورة يريد الخالق أن نعبده. ويُستشهد على ذلك بعدد الطقوس الشاذة البشعة التي سنّها الإنسان، بدون انتباه إلى أن مردّ الاختلاف هو بالضبط تعدد الوحي. ما إن بدا للبشر أن يُنطقوا الخالق حتى أنطقه كل واحد على هواه وضمّن كلامه ما أراد من معانٍ. لو اكتفوا بما أملاه الخالق على قلب كل فرد لما وجد على الأرض سوى دين واحد.

111 أوليست وحدة الشعائر ضرورية؟ لا شك في ذلك. لكن هل الأمر بالخطورة التي تستدعي تدخّل الرب؟ يجب أن نفصل ظاهر الدين عن حقيقته. ما يطلبه منا الخالق هو أن نعبده بالقلب، وتلك عبادة، إن كانت صادقة، واحدة. من العُجب الأخرق أن نعتقد أن نوع اللباس الذي يرتديه القس، ترتيب الألفاظ التي ينطق بها، الحركات التي يقوم بها أمام المعبد، عدد الركعات التي ينجزها، كل ذلك يحظى باهتمام الخالق. انتصب،

أيها الإنسان، بكل قامتك، إنك، في كل الأحوال، ستظل لصيق الأرض. يريد الخالق أن نعبده بحق وبصدق، هذا واجب في كل ملّة، في كل بلد، على كل فرد. أما عبادة الظاهر، حركات الأعضاء، إن كان لا بد أن توحَّد تفادياً للتناثر والفوضى، فتلك مسألة نظام وسياسة، ولا تستلزم أي وحي.

112 لم تكن تأملاتي هذه منطلقَ فكري. كنت لا أزال تحت تأثير العقائد المترتبة عن تربيتي، كما كنت ضحية تلك الأنانية المضرة التي تدفع المرء إلى تجاوز حدود قُواه. وبما أني لم أستطع أن أسمو بذهني الضعيف إلى مقام الكائن الأعظم عملت على أن أقرّبه إليّ. أردت منه أن يتصل بي مباشرة وأن يجود عليّ بتعاليم خاصة. لم أقنع بأن أجعل الرب شبيهاً بالإنسان، بل أردت أن يفردني بمعارف خارقة أتميّز بها عن أقراني. أردت شعائر استثنائية وأن يقول لي الخالق ما لم يقله لأحد من قبلي أو أن يقول لي قولاً لم يفهم معناه أحد كما أفهمه أنا.

113 وصلت إذن إلى نقطة بدت لي منطلقَ كل فرد مؤمن يبحث عن طريقة أعلى للتعبد. فاقتنعتُ أن بنود دين الفطرة هي العناصر التي تكونت منها كل نحلة نحلة. أنظر إلى تعدد الفِرق الموجودة فوق الأرض والتي تتهم بعضها بعضاً بالكذب والغي. فأتساءل: أيها على حق؟ كل فرد يجيب: فرقتي. كل فرد

يصيح: أنا وحدي على حق، من اتّبعني نجا ومن خالفني غوى. وكيف علمت أيها الرجل أن فرقتك وحدها على حق؟ الرب قال ذلك(*). ومن قال إن الربّ قال ذلك؟ القس الذي يرشدني والذي يعرف كل شيء. يأمرني بأن أعتقد ذلك فأعتقده. يؤكد أن كل من خالفه كذاب وعليّ أن لا أُنصت إلى قوله.

114 ويْحك! أوليست الحقيقة واحدة؟ الحق عندي هل يمكن أن يكون باطلاً عندك؟ هذا ما رددته في خاطري. إن كان

(*) أورد هنا ما يقوله قس طيب رصين: «كلهم يقولون، وبالرطانة نفسها، إنهم تلقّوا شريعتهم من الخالق وليس من البشر أو من أي مخلوق. لكن الحق، من دون مجاملة أو مراوغة، غير ما يدعون. كل الشرائع، مهما يقال، مأخوذة عن البشر وبوسائل بشرية. الدليل الأول على ذلك هو كيف تقبّلها الناس على الأرض ولا يزالون إلى اليوم. الأمة، الوطن، المولد، هذه الأشياء هي مأخذ الديانة. عقيدة أي امرئ عقيدة البلد الذي ولد وتربى فيه، يختن، يعمد، يكون يهودياً أو مسلماً أم نصرانياً قبل أن يعرف أنه إنسان. ديانته ليست من اختياره وانتقائه. الدليل الثاني هو ما يحدث لاحقاً، عدم مطابقة حياة المرء وسلوكه مع تعاليم دينه. الدليل الثالث هو أن عوارض بشرية، جد تافهة، تدفع المرء إلى معاكسة محتوى عقيدته.» هذا ما يقوله بيير شارون[1] في كتابه **في الحكمة**. أكبر الظن أن ما كان يعتقده في قرارة قلبه هذا الرجل الفاضل، الذي كان يدرس التيولوجيا لشركاء كاتيدرائية مدينة كوندوم، لا يختلف عن عقيدة صاحبنا من جبال السافوا.

(1) Pierre Charron, De la sagesse, livre II, chap. V, p. 257 (édit. Bordeaux, 1601).

كوندوم (Condom) مدينة عريقة في جنوب فرنسا. كان بيير شارون مكلفاً بتدريس أصول الدين الكاثوليكي للمنتسبين لكنيستها. عاش من سنة 1541 إلى 1601.

نهج من استقام هو نهج من حاد عن الصواب، أي فضل للأول وأي عيب في الثاني؟ اختيار كل واحد راجع إلى المصادفة والاتفاق. إلقاء المسؤولية على هذا أو ذاك ظلم سافر. كما لو كان الجزاء أو العقاب يتمّ بحسب المولد. من يتجرأ ويدّعي أن الخالق يحكم علينا على هذا الأساس يستخفّ بالعدل الإلهي.

115 إما كل الديانات حسنة مقبولة في عين الخالق وإما ديانةٌ واحدة لازمة على الجميع، مَن كفر بها استحق العقاب. في هذه الحال لا بد من وجود دلالات بيّنة مقنعة تميّزها عن غيرها وتضفي عليها وحدها طابع الصحة. وتلك العلامات يجب أن تكون قائمةً في كل زمن وفي كل مكان، في متناول البشر، الكبير والصغير، العالِم والأمّي، الأوروبي والهندي والأفريقي وحتى الإنسان المتوحش. لو كانت على وجه الأرض ديانةٌ هذا وصفُها، مَن آمن بها نجا ومن جحدها عُذّب إلى ما لا نهاية، ووُجد في بقعة بعيدة من الأرض إنسان واحد لم يقتنع ببداهتها، رغم حسن نيّته، عندئذ وجب الحكم أن إله تلك الديانة يفوق سائر الطغاة ظلماً وتعسّفاً.

116 هل نبحث بصدق عن الحقيقة؟ لنهمل بالمرة عندئذ دور المنشأ وتأثير الآباء والقسوس، ولنَعرض على محكمة الوجدان والعقل كل ما لُقّن لنا منذ الصغر. ليصح في وجهي الصائحون: الزم حدّك، الجم عقلك! قد يأمرني بالأمر نفسه من

يخطط لخداعي. من يطلب مني أن ألجم عقلي، عليه أن يأتيني أولاً بالبرهان.

117 كل ما كان في وسعي أن أعرفه عن الخالق، بمراقبة الكون والاستعمال الصائب لمواهبي، هو ما سبق أن بيّنته لك. لكي أخطو خطوة إلى الأمام أحتاج إلى وسائل غير عادية. وهذه ليست في حوزة البشر. لا ميزة لأي إنسان عليّ، ما يعرفه بطرق طبيعية يمكنني أن أعرفه بدوري، كما أنه معرّض دائماً للخطأ. إن صدّقتُ ما يقول فليس لأنه قاله بل لأنه واجهني بحجّة. شهادة البشر ليست في آخر تحليل سوى شهادة العقل ولا تربو على المسالك الطبيعية التي وهبها الخالق لي لأدرك الحقيقة.

118 أيها الداعي إلى الرشد، ماذا عندك مما لا يجوز لي تمحيصه؟ تقول: الربّ نطق فما عليك إلا السمع! هذه مسألة جديدة. الرب نطق، ما أثقلها من كلمة! الربّ كلّم مَن؟ كلّم بني آدم. ولماذا لم أسمع وأنا من البشر شيئاً من كلامه؟ لأنه كلّف أناساً آخرين ليبلغوا عنه. أفهم من جوابك أن أناساً سيقولون لي ما قاله الرب، كنت أفضل أن يقول لي ذلك مباشرة، هل كان يكلّفه جهداً أكبر؟ ثم لو فعل لعصمني من الضلال. لا خوف عليك، لن تضل إذ جعل الرب رسالته واضحة بيّنة. وكيف ذلك؟ بالمعجزات. أين هي؟ موصوفة في الكتب. ومَن ألّف الكتب؟ الرجال. ويْحك! الرجال، الرجال، دائماً رجال يروون

لي ما رواه لهم رجال آخرون. ما أكثر الوسائط من البشر بيني وبين الخالق! رغم اعتراضاتي هذه، يجب عليّ أن أنظر، أن أمحّص، أن أقارن، أن أحقّق. آه، لو شاء الرب وأعفاني من كل هذه المشاق، أكنتُ أعبده بقلب أقل خشوعاً؟

119 لاحظ، يا ولدي العزيز، إلى أي جدال مريع دُفعت دفعاً. كم من معلومات دقيقة أحتاج إليها لكي أستحضر الماضي الغابر وأفحص، أقارب، أقارن النبوءات، الرسالات، الوقائع، كل معالم الإيمان التي عرضت في شتى بقاع المعمورة، حتى أحدد لكل واحدة منها زمانَها ومكانها وصاحبها وظروف حدوثها. أي حس نقدي دقيق يجب أن أتحلى به لكي أميّز بين الوثائق الصحيحة والمفترضة، لكي أقارن الاعتراضات والتفنيدات، الترجمات وأصولها، لكي أقضي بنزاهة الشهود، حصافتهم، مستوى معارفهم، لكي أتحقّق أنه لم يلحق الوثائق حذفٌ أو إقحام، تحوير أو تحريف أو تزوير، لكي أرفع ما بقي من تناقض، لكي أؤوّل إعراض الخصوم عن ردّ الاتّهامات الموجهة إليهم، هل وصلتم أم لا، هل رأوا أنها تستحق التفنيد أم لا، هل كانت الكتب منتشرة بما فيه الكفاية حتى يطّلعوا على مؤلفاتنا، هل كنا منصفين إلى حدّ السماح برواج كتبهم بيننا وعرض أقوى حججهم على وجهها الصحيح؟

120 بعد الإقرار بصحة كل هذه المعالم، يجب النظر في

الآيات الدالة على صدق أصحابها. علينا أن نلمّ بقوانين المصادفة وحساب احتمال الوقائع لكي نقضي بصحة النبوءات التي لا تتحقق بدون خوارق. لا بد لنا من أن نعرف روح اللغات الأصلية لكي نميّز صيغة ما هو إخبار عن الغيب وما هو مجرد عبارة بيانية، أن نميّز بين الحوادث التي تدخل في مجرى الطبيعة وتلك التي لا تدخل فيها، ونقفَ على أي حدّ يمكن لرجل ماهر أن يخدع أبصار البسطاء ويبهر حتى عقول النبهاء. علينا أن نحدد صورة الخوارق، وأيَّ مستوى من الصحة يجب أن تتحلى بها ليس فقط ليقتنع بها المشاهد بل ليستحقَّ العقاب إن هو أنكرها. علينا أن نقارن بين شواهد المعجزات الصحيحة والتمويهية ونقرّ طريقة التمييز بين النوعين. وأخيراً علينا أن نفسّر لماذا يختار الرب، للشهادة على وحيه، وسائل تحتاج بدورها إلى شهادة، كما لو كان يراهن على غفلة خارقة ويتحاشى عمداً الوسائل الجديرة بإقناعهم.

121 لنفترض أن الخالق جل جلاله تواضع إلى حدّ اختيار إنسانٍ وسيلةً لإظهار مشيئته السامية، هل يجوز عقلاً، هل يصحّ عدلاً أن يُطلب من البشر كلهم أن يطيعوا أمر هذا المبعوث المرسَل بدون شارة تدل على مأموريته؟ أمِن الإنصاف أن يزوده فقط، كوثيقة اعتماد، بآيات قليلة تُكشف لعدد ضئيل من الأفراد المغمورين ولا يطلع عليها سائر البشر أبداً إلا عن طريق الرواية؟ لو صدّقنا كل الخوارق التي يقول بسطاء وعوامّ جميع شعوب

الدنيا أنهم شاهدوها لصحّت دعوى كل نحلة، بل لفاقت الخوارق عدد الوقائع العادية ولكانت أكبر المعجزات أن لا تحدث معجزة كلما اضطُهدت جماعة من الغلاة. أوضح دليل على حكمة الخالق هو تواتر سنن الخلق. لو تواترت القواطع لحار الفكر. إيماني العميق بالرب هو الذي يمنعني من التصديق بتكاثر المعجزات التي لا تليق في معظمها بجلالته.

122 إن جاءنا إنسانٌ وقال: أيها الناس إني أبشّركم بمشيئة الرب الأعلى، اسمعوا ما أقول واستدلّوا به على مَن أرسلني: آمر الشمس أن تحيد عن مدارها، النجوم أن تنتظم على شكل جديد، الجبال أن تنهدّ، البحار أن تنهض، الأرض أن تغيّر زينتها. أمام هذه العجائب مَن منا يعاند ولا يرى في كل هذا يد رب الطبيعة! الطبيعة لا تطيع المموّهين. أما ما يُستشهد به عادةً من معجزات فإنها تقع في ملتقى الطرق، في الصحاري، في الغرف المغلقة. في هذه الظروف يسهل التحكم في عقول عدد قليل من المشاهدين المستعدين سلفاً لتصديق أي حادث. من يتطوع ويذكر لي بالتحديد كم يجب من شهود عيان ليصبح الأمر المعجز قابلاً للتصديق؟ إن كانت الخوارق التي تزعمون أنها تثبت مقالتكم بدورها في حاجة إلى إثبات، ما الفائدة من إيرادها؟ أفضل الاستغناءُ عنها رأساً.

123 بقي علينا أن ننظر في أهم نقطة تتعلّق بفحوى

الرسالة. بما أن الذين يقولون إن الخالق يفعل المعجزات في الدنيا يزعمون أن الشيطان يقلدها أحياناً ويأتي بخوارق مدعومة بأقوى الشهادات. وهنا نراوح مكاننا. استطاع سَحَرة فرعون، بمحضر موسى نفسه، أن يأتوا بالمعجزات نفسها التي قام بها هو بأمر خاص من ربّه، ما المانع إذن، في غيابه، أن يدّعوا مأموريته على الأساس نفسه؟ وهكذا بعد أن أثبتنا الدعوة بالمعجزة، نجد أنفسنا مضطرين إلى إثبات صدق المعجزات بصحة الدعوة(*)، مخافةَ أن نضلّ ونظن أن عمل الشيطان هو من فعل الخالق. هذا دور وأي دور، ما رأيك فيه، يا ولدي؟[1]

(*) هذا الأمر مؤكد في ألف موضع من التوراة. نقرأ في الفصل 13 من كتّاب التثنية ما يلي: إن جاءكم نبي يدعو آلهة غرباء ودعم دعواه بخوارق، حتى إن حدث ما تنبأ به لا تظهروا له الاحترام بل اقتلوه. عندما كان الوثنيون يفتكون بالحواريين إذ كانوا يبشرون بمجيء إله غريب ويستدلون على صحة رسالتهم بالنبوءات والمعجزات، لا أرى أية حجة قوية يمكن أن يجابهوا بها ولا يستطيعون ردّها علينا في الحين. ما الحل في مثل هذا الوضع؟ الاحتكام إلى العقل وحده والإعراض عن الخوارق. كان أجدى للجميع العدول عنها بالمرة. هذا هو الرأي السليم الذي لا يخفى على أحد إلا بإيراد تفريعات أقل عيوبها أنها في غاية اللطافة والدقة. تفريعات في النصرانية؟ إذن أخطأ المسيح عندما استهلّ أجمل خطبة له بالثناء على البسطاء ضعاف العقول، إن كنت أحتاج، لكي أدرك رسالته والإيمان بها، أن أكون ذا فطنة فائقة. عندما تقنعونني بالبرهان أن عليّ أن أرضخ لما تدعونني إليه، تستقيم الأمور. لكن لكي تقنعوني بالبرهان، عليكم أن تكونوا في مستوى عقلي، يجب أن يكون استدلالكم على قدر فهم مَن فِكرُه بسيط ضعيف. وإلا كيف لي أن أعرف أنكم من أتباع إمامكم وتبشرون فعلاً بمذهبه؟

(1) الدور (diallèle) خطأ منطقي هو أن تستشهد بأمر لا يصح إلا بصحة ما تريد إثباته. المعجزة تدل على صدق الرسالة، لكن المعجزة لا تُميَّز عن السحر

124 ثم هذه الرسالة، المنزّلة من الخالق، يجب أن تُطبع بقداسة الرب. يجب أن توضح لنا المفاهيم الملتبسة التي استقيناها من تحريات العقل. زيادة على هذا، لا بد أن تدعونا إلى شعائر وأخلاق، أن تفرض علينا واجبات تتناسب مع الصفات التي لا نتصور حقيقة الخالق بدونها. إن كانت لا تعلمنا سوى أمور سخيفة غير معقولة، لا تلقّننا سوى كراهية إخواننا في الإنسانية والفزع من أنفسنا، لا تصور لنا الخالق إلا غاضباً، ناقماً، متوعداً، متحيزاً، معادياً للإنسان، داعياً إلى الاقتتال والتناحر، مستعداً بالدوام للقهر والتدمير، مذكراً بلا ملل بالعذاب وآلامه، متباهياً بمعاقبة حتى الأبرياء، فلن يميل قلبي إلى مثل هذا الرب المخيف وسأتردد طويلاً قبل أن أتخلّى عن دين الفطرة وأعتنق تعاليمه، إذ من الواضح أنه يجب الاختيار بين العقيدتين. سأقول لأنصار هذا الدين: إلهكم هو غير إلهنا، هذا الذي يبدأ باصطفاء شعب واحد مقصياً سائر البشر لا يمكن أن يكون أب الإنسانية جمعاء. هذا الذي يُعدّ للجزء الأكبر من

= إلا بالرجوع إلى نص الرسالة، هذه المسألة حيّرت المتكلمين من كل الأديان. انظر الباقلاني، كتاب **البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات** (بيروت 1958)، ص 75.

يقول باسكال: «القاعدة: يجب الحكم في التعاليم عن طريق المعجزات ويجب الحكم في المعجزات عن طريق التعاليم. كل هذا صحيح ولكن لا تناقض فيه.» **خواطر** (بيروت 1972، ترجمة ادوار البستاني)، خاطرة رقم 843.

خلقه عذاباً لا نهاية له ليس الرب الرحيم الكريم الذي دلّني عقلي على وجوده.

125 . وفيما يتعلق بالعقيدة يقول لي العقل إن بنودها يجب أن تكون واضحة نيّرة ساطعة في بداهتها. إن كان في دين الفطرة عيب فهو الغموض الذي يحيط بحقائقها العليا. ودور الوحي هو بالضبط رفع الحجاب عن تلك الحقائق بأسلوب بسيط قريب من عقول البشر، أن يجعلها في متناولهم وأن يهب لهم القدرة على تمثّلها حتى يصدّقوا بها. بالفهم وحده يتحقق الإيمان ويترسّخ. وأفضل ديانة هي بدون شك الأكثر بياناً ووضوحاً. من يملأ الديانة التي يدعوني إليها بالأسرار والألغاز يزرع حتماً الشك في قلبي. الرب الذي أعبده ليس رب الظلمات. لم يمنّ عليّ بالعقل ليحرم عليّ اللجوء إلى دلالته. الأمر بطمس نور العقل قدح في حكمة الباري. من يدعوني إلى الحق لا يضطهد عقلي بل ينيره ويرعاه.

126 استبعدنا إذن كل سلطة بشرية. وبدون سلطة لا أرى كيف يمكن لإنسان أن يقنع آخر وهو يدعوه إلى اعتقاد تعاليم غير معقولة. لنضع لحظةً هذين الرجلين وجهاً لوجه، ولنسمع لما قد يقوله أحدهما للآخر بتلك اللهجة العنيفة المعهودة عند الاثنين.

العقل يقول لك: الكل أكبر من الجزء. وأنا أقول لك، باسم الرب، إن الجزء أكبر من الكل.

الرجل المتعاقل[2]

ومن أنت حتى تتجرأ وتقول إن الخالق يناقض نفسه؟ لمن أسمع، للخالق الذي كشف لعقلي حقائق قارة أم لك أنت الذي تقول باسمه المحال؟

الملهم

اسمع لي أنا لأن ما أعلمه لا يدخله أدنى شك. ثم سأبيّن لك بالبرهان أن الرب هو الذي أرسلني.

المتعاقل

ويْحك! تثبت لي بالبرهان أن الخالق أرسلك لتشهد عليه؟ وأية بيّنة هذه التي تتوخى إقناعي أن الخالق يكلمني على لسانك كلاماً أصدق من الذي أودعه في عقلي؟

الملهم

العقل! العقل! ياحقير، يا مغرور، تظن أنك أول زنديق أغواه عقله الفاسد بالخطيئة؟

---

(1) المجادل بالوحي. L'inspiré

(2) المجادل بالعقل. Le raisonneur

المتعاقل

وأنت، يا رجل دين، لست أول محتال يستبدل بالغطرسة الحجة على رسالته.

الملهم

أرى أن الفلاسفة يلجأون أيضاً إلى الشتم.

المتعاقل

مثلهم مثل القديسين.

الملهم

الشتم متاح لي إذ أتكلم باسم الرب.

المتعاقل

آتني بالحجة على هذا الامتياز.

الملهم

الحجة قائمة. الأرض والسماء تشهدان لي. انصت من فضلك إلى استدلالي.

المتعاقل

أي استدلال! لا تستعمل هذه الكلمة. أما قلت إن عقلي فاسد بالخطيئة، فكيف يصحح أية حجة قد توردها؟ من يستصغر العقل من البدء عليه أن يقنع الناس من دون استدلال. لنفرض أن برهانك أقنعني، من يضمن أن ما دعاني إلى الاعتقاد هو غير ذلك العقل الفاسد بالخطيئة؟ ثم أي برهان قد تقدّمه يكون أصح من المسلّمة العقلية التي تنوي أنت تفنيدها؟ تقول إن القياس

الصحيح فاسد، كما قلت آنفاً إن الجزء أكبر من الكل، كلا القولين محال.

الملهم

الفرق واضح. أدلي أنا بحجج لا يمكن ردّها إذ هي فوق الطبيعة.

المتعاقل

فوق الطبيعة؟ ماذا تعني هذه العبارة التي لا أفهمها؟

الملهم

أعني تحولات مفاجئة في مجرى الطبيعة، نبوءات، معجزات، خوارق من شتى الأنواع.

المتعاقل

خوارق، معجزات، لم أرَ أبداً شيئاً من كل هذا.

الملهم

لكن غيرك رآه عوضاً عنك، أسراب من الشهود، شعوب بأكملها.

المتعاقل

وهل شهادة الشعوب أمر خارق للعادة؟

الملهم

لا.. لكن إذا تمّ الإجماع لم يعد مجال للشك.

المتعاقل

ما لا مجال للشك فيه بداهةُ العقل. ولا مسوّغ لتصديق

المحال حتى لو أجمع الشهود على حدوثه. أعيد السؤال: ما هي أدلّتك غير العادية إذ شهادة البشر لا تُعدّ منها؟

الملهم

ما أقسى قلبك! لم تهتدِ بعد.

المتعاقل

وهل الهداية بيدي؟ حسب قولك الاهتداء سابق على الهداية. إذن لا تكلمني عنها وخاطبني وفق حالي.

الملهم

هذا ما أفعل، يا شقي، لكنك لا تصغي. ما قولك في النبوءات؟

المتعاقل

أقول أولاً إني لم أسمع بنبوءات كما لم أرَ قط معجزات. ثم أقول ثانياً إن النبوءة، أياً كانت، لا تقوم حجةً في نظري.

الملهم

ولِمَ ذلك، يا ذنب الشيطان؟

المتعاقل

لكي تقوم حجةً لا بد من توافق أمور ثلاثة وهذا محال. يجب أولاً أن أكون شاهداً على النبوءة، ثانياً أن أكون شاهداً على الحدث المتنبأ به، ثالثاً أن يقوم الدليل على أن وقوع الحدث لم يوافق النبوءة بالمصادفة. حتى لو كانت تلك النبوءة في دقة ووضوح مسلّمة هندسية، بما أن دقة أية نبوءة جاءت اتّفاقاً لا يكون حدوثها محالاً، فهذا الحدوث عندما يقع لا

يشهد، في عين الفاحص المدقق، على صدق المتنبئ. هذا ما تؤول إليه الشهادات التي تزعم أنها فوق الطبيعة، أي المعجزات والنبوءات. تؤول إلى الاعتماد على تصديق الغير، إلى رَهْنِ كلمة الخالق، المبثوثة في عقلي، بكلمة البشر. لو قُدّر أن يتسرّب الشك إلى الحقائق الأبدية التي يتمثّلها عقلي، لم أعد أطمئن إلى أي شيء أبداً. وعوض أن أتيقن أن كلامك من عند الخالق، سأبدأ أتساءل هل الخالق موجود حقاً.[1]

128 ترى، يا ولدي، أيةَ صعوبات نواجه! وتلك الصعوبات لا تقف عند هذا الحد. من بين هذا العدد من الديانات المختلفة، كل واحدة منها تكفّر الأخرى وتتبرأ منها، إحداها فقط قد تكون صحيحة. هذا احتمال. لكي نميّز الصحيحة لا يكفي فحص واحدة فقط، لا بد من تمحيص الكل. إذ لا يجب إدانة أحد بدون الاستماع إلى قوله[*]. لا بد من

---

(1) الحوار أسلوب عادي في العرض الفلسفي، لكن روسّو لا يتقنه، مقارنة بكتّاب معاصرين له. لا جديد في هذه الصفحات. المتعاقل، المجادل العاقل (raisonneur)، يواجه المجادل بالوحي، ولا يمثّل تماماً موقف روسّو.

(*) يروي فلوطارخوس أن من بين مفارقات الرواقيين الغريبة، أنهم كانوا لا يرون، في حال نزاع، ضرورة الاستماع إلى الفريقين. قالوا: أول من يتكلم اما يستدل على دعواه واما لا يستدل. ان فعل حُسم الأمر ووجب الحكم له. إن لم يقم الدليل على دعواه، دل ذلك على أنه ليس على حق وحكم لصالح خصمه. أرى أن الذين يؤمنون برسالة سماوية واحدة يطبقون منطق الرواقيين. كل واحد يقول انه وحده على حق. لكن لكي نختار بين المذاهب، إما نسمع للجميع وإما نكون غير منصفين.

مقابلة الاعتراضات بالأدلّة، من معرفة ما يواجه به هذا الفريق ذاك وما يردّ الثاني على الأول. كلما بدت لنا مسألة بديهية يجب علينا أن نبحث لماذا لا تبدو كذلك لعدد لا يحصى من البشر. ساذج من يسمع فقط لعلماء حزبه ليطّلع على حجج الخصوم. مَن بين هؤلاء العلماء يتوخى الإنصاف ولا يبدأ بتشويه أقوال الخصوم قبل تفنيدها؟ كم من مجادل يصول ويجول بين أعضاء حزبه، يتباهى بأدلّته وسط إخوانه، ثم يبدو سخيفاً إذا ما أدلى بالحجج نفسها أمام الخصوم! تروم معرفة الحق من خلال الكتب؟ كم من علوم تمهيدية عليك أن تتقن! كم من لغات يجب أن تتعلم! من مكتبات أن تزور! من مراجع أن تطالع! وأين دليلك في كل هذه المتاهات؟ أينما كنت يتعذر عليك العثور على أجود مؤلفات الخصوم، ناهيك عن كتب كل النحل. وعندما تضع يدك عليها تجد أنها قد فُندت. الغائب دائماً محجوج، والبرهان الواهي إذا قيل بحزم واطمئنان يُرجح على آخر أقوى إذا ما عرض بتهكم واستخفاف. ثم الكتاب ما أسهل ما ينخدع به القارئ إذ قلما يكون كاتبه صادقاً. أنت نفسك، يا ولدي، عندما أردت أن تتعرف على عقيدة الكاثوليك من خلال كتاب بوسويه[1] وجدت أنه لا يطابق ما لاحظته عندما حللت بيننا. جربت بنفسك أن العقيدة التي يقابل بها البروتستانت ليست تلك التي تلقّن

(1) Jacques-Bénigne Bossuet, Exposition de la doctrine de l'Eglise catholique sur les questions de controverse, 1671.

للشعب وأن مؤلف بوسويه لا يشبه في شيء ما يتلى على المنابر. لكي تُصدر حكماً صحيحاً على ديانة ما، لا يكفي أن تدرسها في كتب أتباعها. لا بد من أن تعيش بينهم. وعندئذ تجد اختلافاً كبيراً بين المعتقد والسلوك. لكل امرئ تقاليده، ذهنيته، عوائده، مسلّماته، كل ذلك يجسد روح عقيدته، فيجب اعتباره للحكم على الديانة المعنية.

129 شعوب عظيمة أمية. لا تطبع كتباً ولا تقرأ ما نكتب نحن. فكيف يتأتى لها أن تحكم على مقولاتنا وكيف يتأتى لنا أن نحكم على آرائهم. نحن نسخر منهم وهم يحتقروننا. إن كان بعض مواطنينا الذين جالوا في بلادهم يستهزئون منهم، فما عليهم هم إلا أن يسافروا إلى بلادنا ليعاملونا بالمثل. لا يوجد بلد ليس فيه أفراد عقلاء منصفون فضلاء، يحبون الحق ومستعدون لاعتناقه متى تبيّنوه. ومع ذلك كل واحد يرى الحق في شريعته وفي شرائع باقي الأمم مجرد سخافات. إذن شرائع الآخرين، رغم غرابتها، ليست شاذة كما نعتقد، أو ما نراه معقولاً في شريعتنا لا يشكل حجة على غيرنا.

130 تتقاسم أوروبا ثلاث ديانات رئيسية. إحداها تؤمن برسالة واحدة، الثانية برسالتين، الثالثة بثلاث رسالات. كل واحدة تمقت وتلعن الأخريين، ترميهما بالتعامي والعناد والتعنّت والكذب. أين الإنسان المنصف الذي يتجرأ ويفضل بينها إن لم

يبدأ بتمحيص حجج كل واحدة وينصت إلى براهينها. الديانة التي لا تقبل سوى رسالة واحدة هي الأقدم وتبدو الأوثق. الديانة التي تقبل ثلاث رسالات هي الخاتمة وتبدو الأكثر اعتدالاً واتّساقاً. التي تقول برسالتين، رافضةً الثالثة، قد تكون الأفضل، لكنها تصدم البديهة والتناقض في معتقدها واضح لكل ناظر.

131 كتب الرسالات الثلاث محررة بلغات يجهلها الأتباع. اليهود لم يعودوا يفهمون العبرية، المسيحيون لا يفقهون العبرية ولا اليونانية، الأتراك والفرس لا يفهمون العربية، وعرب اليوم أنفسهم لا يتكلمون لغة محمد. ما أغربها طريقةً لتهذيب الناس أن تخاطبهم دائماً بلغة لا يفهمونها! بل هذه الكتب مترجمة، أليس الأمر كذلك؟ حسناً، لكن من يضمن أنها تُرجمت بأمانة، بل انها قابلة أصلاً للترجمة؟ بما أن الخالق تواضع إلى حدّ مخاطبة البشر، ما باله يحتاج إلى ترجمة؟

132 لن أتصور أبداً أن كل ما يجب على الإنسان أن يعرفه محصور في الكتب، وأن من لم يضع يده عليها، أو لم يتصل بمن يفهمها، يعاقب على هذا الجهل غير المتعمد. الكتب! الكتب! أي هوس هذا؟ أوروبا متخمة بالكتب، فيرى الأوروبيون أنها ضرورية من دون أن ينتبهوا إلى أن ثلاثة أرباع سكان الأرض لم يروا كتاباً قط. من ألّف الكتب؟ أوليس بنو آدم؟ فكيف أضحت الكتب شرطاً لازماً لهم لمعرفة واجباتهم؟ كيف عرفوها

قبل أن تنتشر الكتب؟ إما أن يتعلم الانسان واجباته من نفسه وإما هو مُعفى من معرفتها.

133 يفتخر إخواننا الكاثوليك بأن لهم مرجعية ثانية في الكنيسة. أية فائدة تعود لهم من ذلك، إذ عليهم أن يحتجوا، لإثبات صحة تلك المرجعية، بأدلة ليست أقوى من التي يحتاجون إليها لدعم تعاليمهم ذاتها. الكنيسة الكاثوليكية تقرّ أن لها وحدها حق التقرير في مسائل العقيدة. يا لها من حجة دامغة! إذا نفينا هذه المسلّمة عدنا إلى الإشكال نفسه.

134 هل تعرف مسيحيين كثيرين تحمّلوا مشقة الاطلاع على ما يقوله اليهود ضدهم؟ إن عرفوا بعضه فعبر مؤلفات إخوانهم في الدين. وهذه لعمري وسيلة عجيبة للكشف عن أدلة الخصوم! لكن لا حيلة لأحد في هذه المسألة. لو تجرأ أحدنا وبادر بنشر كتب تحابي صراحة ديانة اليهود، لعوقب في الحين المؤلف والناشر والكتبي(*). القمع يريح ضميرنا ويجعلنا نشعر

(*) توجد ألف نازلة موثقة في الشأن، أذكر منها واحدة لا تحتاج إلى تعليق. أثناء القرن السادس عشر، بعد أن أفتى متكلمو الكاثوليك بإحراق كل كتب اليهود بلا استثناء، استشير في هذا الأمر العلامة الشهير روشلين[1]، فأجاز عدم إحراق المؤلفات التي لا تهاجم دين المسيح وتتعلق بأشياء بعيدة عن الدين. قامت القيامة ضده وأوشك على الهلاك بسبب قوله هذا.

(1) Johann Reuchlin, 1455-1522.

أننا دائماً على حق. يسرّنا أن نفحم أناساً لا يجرؤون على رفع صوتهم.

135 وحتى من يتقرب إلى اليهود ويستطيع محاورتهم لا يحصل منهم على شيء. هؤلاء المساكين يعلمون أنهم تحت رحمتنا. استولى على قلوبهم الرعب لكثرة ما ذاقوا على أيدينا من اضطهاد. يعلمون كم يسهل على النصارى، رغم ما يدّعونه من برّ، التجنّي عليهم، وأن كل ما يصدر عنهم قد يعرّضهم لتهمة المس بالمقدسات. ثم الطمع يشجع فينا الحمية على الدين، لا سيما وأننا نرى في غناهم الفاحش أوضح دليل على غيّهم. أكثرهم علماً وثقافةً أشدهم حذراً. قد تستهوي بعض فقرائهم وتستدرجه إلى التنكر لدينه ثم تؤجره ليتعرض لإخوانه بالسب، قد تُقنع أحد تجار الخردى بأن يدخل معك في جدال ديني، فينتهي بالمصادقة على ما تقول تملقاً لك. تنتصر على مثل هؤلاء الأرذال بسبب جهلهم أو تخاذلهم، في حين أن علماءهم يسخرون من غباوتك. لكن ماذا يحصل لو كانوا في مكان آمن؟ أتظن أنك ستتفوّق عليهم بالسهولة نفسها؟ لا شك عند دكاترة السوربون أن النبوءات عن المسيح المنتظر الواردة في التوراة تتعلق بعيسى بن مريم. ولا شك عند أحبار أمستردام[1] أن لا علاقة البتة بين هذا وتلك. لن أيقن أبداً أني فهمت براهين اليهود

---

(1) ذكر مدينة أمستردام إشارة إلى أن هذه الاعتبارات الموالية لليهود مستوحاة من تحليلات سپينوزا.

إلا عندما تكون لهم دولة حرة ومدارس وجامعات يستطيعون أن يتكلموا فيها من دون أن يشعروا بأي خطر على حياتهم. عندها فقط نعرف حقاً ما في جعبتهم.

136 في القسطنطينية يدلي الأتراك بحججهم فيما نلتزم نحن الصمت، إذ هناك نذوق بدورنا مرارة الذل والهوان. إن كان الأتراك يفرضون علينا احترام محمد الذي لا نؤمن برسالته، ونحن نفرض على اليهود احترام عيسى الذي لا يؤمنون هم برسالته، هل الأتراك في خطأ ونحن المسيحيين على صواب؟ على أي أساس نعتمد إن توخينا الإنصاف؟

137 ثُلُثا سكان الأرض ليسوا يهوداً أو مسلمين أو نصارى، وكم من ملايين البشر لم يسمعوا قط باسم موسى أو عيسى أو محمد. يعترض البعض قائلين إن المبشّرين يوجدون في كل مكان. هذا كلام غير مضبوط. هل يذهب المبشّرون إلى مجاهل أفريقيا التي لم يقتحمها إلى اليوم أي أوروبي؟ هل يتوغّلون في آسيا الوسطى يطاردون على صهوة جواد جموع رحّالها الذين لم يقترب منهم أي أجنبي والذين لم يسمعوا قط باللّاما[1] الأكبر، فضلاً عن بابا الكاثوليك؟ هل يتجولون في ربوع أمريكا الشاسعة حيث تسكن أمم عظيمة لم تسمع بعدُ أن

---

(1) رئيس الكنيسة البوذية في التِبت. تتجسّد فيه روح بوذا.

شعوباً من قارة بعيدة وطأت أرضها؟ هل عادوا إلى اليابان بعد أن طردوا منها بصفة دائمة بسبب مناوراتهم وحيث لا تعرف الأجيال الناشئة عن أسلافهم سوى أنهم جماعة من المحتالين المنافقين جاؤوا تحت غطاء تديّن كاذب لغزو وطنهم؟ هل يقتحمون حريم أمراء آسيا لينشروا تعاليم الإنجيل بين الألوف من الرقيق البؤساء؟ ما ذنب نساء ذلك الجزء من المعمورة حتى لا يُدْعون إلى الإيمان؟ هل مآل الجميع جهنم بسبب حرمانهم من الحرية؟

138 وحتى لو صح أن التبشير بالإنجيل عمّ المعمورة، ما فائدة ذلك؟ يوم وصول مبشّر إلى بلد ما يكون إنسان قد توفي بدون أن يسمع به. ماذا نفعل بذلك الإنسان؟ لو لم يوجد على وجه الأرض سوى فرد لم يدرك خبر مجيء المسيح، لكان الاحتجاج بذلك الفرد بقوة الاحتجاج بحال ربع الجنس البشري.

139 بل لنفرض أن دُعاة الإنجيل قد أبلغوا البشرى إلى الشعوب النائية، ماذا في حديثهم يقبله العقل اعتماداً على شهادتهم وحدها ودون تمحيص دقيق؟ أيها المبشّر، تقول لي إن إلهاً نشأ ومات قبل ألفَيْ سنة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية، في بلدة صغيرة لا أعرف اسمها، ثم تعقّب على ذلك أن كل من لا يؤمن بهذا الخبر العجيب مخلّد في النار. هذه حوادث في غاية الغرابة، لا يمكن تصديقها بشهادة رجل واحد غير معروف لدي. إلهك هذا لماذا جعل كل هذه الوقائع التي تفرض عليّ

معرفتها تحدث بعيداً عن وطني كل هذا البعد؟ هل أرتكبُ جريمة إن جهلت ما يجري في أقاصي الأرض؟ هل يجب أن أتكهّن أنه يوجد في النصف الآخر من الكرة شعب عبري ومدينة تسمّى أورشليم؟ لا فرق بين هذا الأمر وأن تفرض عليّ معرفةَ ما يجري في القمر. تقول إنك أتيت لتخبرني بما حدث هناك. ولماذا لم تأتِ من قبل لتخبر والدي؟ لماذا يعاقب هذا الشيخُ الطيب لمجرد أنه جهل الأمر؟ أمِن العدل أن يخلد في النار بسبب تباطئك مع أنه كان طيباً خيّراً محباً للحق؟ كن منصفاً، ضع نفسك مكاني وقل لي هل يجوز لي، اعتماداً على شهادتك وحدها، أن أؤمن بكل ما ترويه من عجائب لا تصدق، أن أوفق بين ما أراه غبناً وعدل الإله الذي تبشر به؟ دعني أولاً أذهب إلى ذلك البلد البعيد حيث جرت كل هذه الغرائب التي لم يسمع أحد قط بمثلها في بلدنا، حتى أفهم لماذا عامل سكانُ أورشليم إلهك كلصّ محارب. تقول إنهم أنكروا ألوهيته. فما حيلتي أنا إذ لم أسمع بوجوده إلا منك؟ تقول إنهم عوقبوا على كفرهم هذا، وكان جزاءَ تعنّتهم الجلاءُ والشتات والاضطهاد والاستعباد حتى لم يعد أحد منهم يقترب من المدينة المقدسة. لا أشك أنهم استحقوا ذلك العقاب، لكن من جاء بعدهم وسكن المدينة، ماذا يقولون في الجريمة؟ هل يقولون إن اليهود قتلوا الرب؟ ينفون ذلك ولا يقولون إن المقتول هو الرب. كان أولى إذن ترك السكان الأولين في المدينة.

140 ويْحك! سكان المدينة التي مات فيها إلهك، القدامى منهم والجدد، لم يعرفوه، وتطلب مني أن أعرفه أنا المولود بعد ألفَي سنة في مكان يبعد عنها بألفَي ميل! ألا ترى بوضوح أنه، قبل أن أصدق ما في كتابك المقدس والذي لم أفهم منه حرفاً واحداً، لا بد لي من أن يخبرني غيرُك متى وكيف ألّف ذلك الكتاب. كيف ظل موجوداً، كيف وصل إليكم، بماذا يستدل سكان البلد لردّ ما فيه مع أنهم يعلمون كل ما تقول. تدرك جيداً أن عليّ أن أذهب إلى أوروبا، إلى آسيا، إلى فلسطين، أن أفحص بنفسي كل هذه الأمور، وإلا اتُّهِمتُ بالبلادة إن صدّقتك قبل أن أمهّد لذلك بكل ما ذكرت.

141 هذا كلام معقول، حسب رأيي، يجب على كل إنسان حصيف أن يتبنّاه، إن وجد نفسه في وضع مماثل، ويردّ به أيَّ مبشر يريد، قبل تمحيص ما يعرضه من أدلّة، الإسراع بتلقينه وتعميده. كما أرى أن الاعتراض على النصرانية ينطبق بأحرى على غيرها من الرسالات السماوية. فأستنتج أنه إن صحّ أن ديناً واحداً يضمن الخلاص لمن يعتنقه، وجب على كل امرئ أن يقضي حياته بأكملها وهو يدرس مجموع الشرائع، يتعمق في فهمها، يقارن الواحدة بالأخرى، يجول في البلاد التي تُدين بها. لا عذر لأحد أبداً إن هو أهمل هذا الأمر الذي هو أول واجب مفروض على بني آدم، إذ ليس لأحد أن يتكل على قول غيره. الصانعُ الذي يكدّ لضمان قوت يومه، الفلاح الأمّي، الفتاة

الناعمة الخجولة، المُقعدُ الذي لا يبرح السرير، كل هؤلاء بلا استثناء ملزمون بأن يدرسوا، يتأملوا، يناظروا بعضهم بعضاً، يسافروا، يتجولوا عبر العالم. عندئذ لن نرى أي شعب مستقراً في مكان محدد، بل تتحول الإنسانية إلى جماعات من الحجّاج الطوافين يتحمّلون مصاريف باهظة ومشاقّ مضنية لكي يراجعوا، يقارنوا، يمحّصوا بأنفسهم شعائر وطقوس مختلف الديانات. فتنحلّ كل العلوم في علم واحد، أي دراسة الأديان. ورغم كل هذا الجهد، في نهاية المطاف، لا نتيجة إيجابيةً مضمونة حتى للمرء الأقوى جسماً، الأرجح عقلاً، الأحرص على اقتصاد وقته، الأحذق في استغلال مواهبه. يا سعداه! إن هو اكتشف، وهو على عتبة الموت، أيةَ ملة كانت الأنسبَ له أثناء حياته!

142 هل تستثقل هذه المسطرة وتستنجد، ولو جزئياً، بسلطة بشرية؟ في الحين تُحرم من كل حرية. إن جاز لولد النصراني أن يعتنق دين والده من دون تمحيص دقيق ونزيه، لماذا يُعاتب ولد التركي[1] عندما يتصرف بالطريقة نفسها ويظل وفياً لعقيدة أبيه؟ أتحدى أي متعصب لدينه أن يأتي في هذا الباب بجواب يُقنع الإنسان العاقل.

143 أمام هذه الاعتراضات المحرجة يفضل البعض أن

---

(1) المسلم.

ينسبوا الجور للخالق، وعوض أن يتخلوا عن عقيدتهم العنيفة الفظة، يرضون بأن يُعاقب الأبرياء بجرائم آبائهم. أما الآخرون فإنهم ينفلتون من المأزق باختلاق مَلَك يأتي في آخر لحظة ليلقّن الشهادة لمن جهِل الحق غيرَ متعمّد وعاش حياة برٍّ وتقوى. يا له من اختراع عجيب هذا المَلَك الطارئ! من يقولون به لا يقنعون باللجوء إلى الحيلة لاستعبادنا، بل يُصرّون على أن يكون الخالق مخاتلاً مثلهم.

144 انظر، يا ولدي، إلى أية سخافات يقود الاستعلاء والتكبر والتعصب عندما يغلو كل امرئ في رأيه ويعتقد أنه وحده على صواب وسائر الناس على خطأ. أُشهد إله الوداعة والرحمة، الذي أدين به وأبشر بحلوله، أني كنت صادقاً في كل التحريات التي أقدمت عليها. ولما شعرت أني وسط بحر لا ساحل له، عُدت القهقرى وحصرت عقيدتي في أبسط التعاليم. لم أستطع قط أن أقنع نفسي أن الخالق فرض عليّ أن أتبحّر في العلم وإلا أخلدني في النار. عندها طويت كل الكتب سوى كتابٍ واحد مفتوحٍ على الدوام لأنظار البشر. في هذا الكتاب العجيب الخلاّب أتعلم كيف أكرّم وأعبد صانعه الأعلى. لا عذر لمن لا يتعلم منه، إذ يكلم الناس بلسان مبين مفهوم لكل العقول. لو وُلدت في جزيرة منعزلة، جاهلاً كل شيء عما حصل قديماً في بقعة من الأرض، إن أعملت عقلي، إن باشرته، إن أحسنت توظيف المواهب التي حباني بها الخالق، لَوَصلتُ حتماً إلى

معرفته، إلى محبته ومحبة خلقه، إلى فعل الخير الذي يريده، إلى القيام بكل واجباتي في هذه الدنيا بغية مرضاته. ماذا يمكن أن يزيد على هذا ما قد أتعلمه من البشر؟[1]

145 فيما يتعلق بالوحي، لو كنت أرجحَ عقلاً وأغزر علماً لربما شعرت بصحته وبنفعه لمن سعد وآمن به. أما أنا فإني أرى من جهة أدلّة مقنعةً على صحته ومن جهة ثانية إشكالات مناقضةً لا أستطيع ردّها. تتساوى البراهين في الاتّجاهين معاً إلى حدّ أني أحجم عن الفصل، لا أقرّ ولا أنفي، كل ما أنكره بقوة هو لزوم التصديق لأن ذلك يتنافى مع العدل الإلهي، إذ يكون الرب، في هذه الحال، قد أكثر من موانع النجاة عوض أن يقلّل منها، وجعل القسم الأعظم من البشرية عاجزاً عن تجاوزها. باستثناء هذه النقطة أقف من المسألة كلها موقفَ المتردد الوقور[2]. لا يذهب بي الغرور إلى حدّ الظن أني معصوم من الخطأ، إذ استطاع أناس غيري أن يفصلوا فيما أرتاب أنا فيه. أفكّر لنفسي لا لغيري. لا ألوم أحداً ولا أقلد أحداً. قد يكون رأي الغير أرجحَ من رأيي. إن لم أوافقهم عليه، فليس ذلك عيباً أُؤَاخذ عليه.

---

(1) هذا ما قصد إليه ابن طفيل في كتابه حي بن يقظان. انظر
Simon Ockley, The improvement of the human reason exhibited in the life of Haï Eben Yakdhan written by Abu Jaafar Eben Tophail, 1708 (fac. sim. 1983)

(2) أو الشك الخجول le doute respectueux

146 لكن، في الوقت نفسه، أعترف أن عقلي يحار لجلالة التوراة وقلبي يخفق لقداسة الإنجيل. مقارنة به[1] كم تبدو كتب الفلسفة، رغم بهرجها، حقيرة مبتذلة! هل يمكن أن يتّسم عمل بشري في آن بهذه الرفعة وبهذه البساطة؟ وبطل القصة المروية هل يمكن أن يكون بشراً؟ أهكذا يتكلم إنسان متحمس أو طموح متحيز؟ أية رقة في كلامه! أية براءة في أخلاقه! أي لطف خلاب في تعاليمه! أي سموّ في وصاياه! أية حكمة في عظاته! أية بداهة، أية حصافة، أي صواب في أجوبته! أي تحكّم في عواطفه! أين الإنسان، أين الحكيم الذي يعرف كيف يتصرف، يعاني، ثم يموت بلا مسكنة وبلا مباهاة؟ عندما يتخيل أفلاطون[2] رجلاً يجسّد الفضيلة في أسمى درجاتها ثم يُتّهم بجريمة فظيعة، فلا يملك إلا أن يرسم بالحرف الواحد صورة المسيح. الشبه قوي إلى حدّ أن جميع آباء الكنيسة المسيحية شعروا به ولا يمكن لأحد أن يغفله[3]. لكن من يماثل بين ابن سوفرونيسكه[4] وابن مريم ينخدع بقصر النظر وآثار الأحكام المسبقة، إذ شتان بين الاثنين! سقراط يموت دون أن يذوق مرارة

---

(1) الكلام على الإنجيل.

(2) عاش من سنة 428 إلى 348 أو 347 ق.م. كان من تلاميذ سقراط ووصف ظروف موته في كتابه Apologie de Socrate

(3) لا يستقيم هذا الرأي إلا بنفي حقيقة الزمان ومفعول التاريخ. أن يكون المسيح مثال سقراط، رغم تأخره زمنياً، يستلزم أن ننظر إلى الحوادث من منظور الأزل حيث لا سابق ولا مسبوق.

(4) Sophroniscus، والد سقراط. كان نحّاتاً.

الألم والخزي، وحتى آخر رمق يشخّص الدور الذي رسم له، ولولا تلك الميتة المشرفة الشجاعة التي توّجت حياته، لترددنا، رغم كل ظُرفه، أن نرى فيه سوى أحد سفسطائيي زمانه. يقال إنه أسّس علم الأخلاق، لكن أناساً كثيرين تحلّوا بأخلاق كريمة قبل أن يولد. عبّر بالألفاظ عما كانوا يفعلونه تلقائياً، هذا كل ما أنجز. استخلص من سلوكهم دروساً للتلقين. كان أريسْتيدَس[1] عدلاً قبل أن يعرّف سقراط العدالة، ومات ليونيداس[2] دفاعاً عن وطنه قبل أن يجعل سقراط من حب الوطن واجباً أخلاقياً. كانت اسبارطه عفيفة قبل أن يمدح سقراط العفة. وقبل أن يحدد ما الفضيلة كانت بلاد يونان تعجّ بالفضلاء. بالمقابل ممن استوحى عيسى تلك الأخلاق السامية الطاهرة التي جسّدها ونادى بها وحده[*]. صدع بأعلى حكمة في وجه شعب أعماه التعصب المفرط. انتدب أحقر وأذل شعب إلى شرف التحلّي بأبسط وأكرم الفضائل. قضى سقراط نحبه متفلسفاً منشرحاً محاطاً بأحبّائه، فمات أحلى ميتة يتمناها مخلوق. لفظ عيسى آخر أنفاسه تحت التنكيل والشتم والازدراء ولعنة جمهور شعبه،

---

(1) Aristides الملقب بالعادل. توفي سنة 468 ق.م. قاد جيوش أثينا براً وبحراً. عند موته لم يوجد عنده ما يصرف على دفنه. فتكفلت بذلك الخزينة العامة.

(2) Leonidas ملك اسبارطه مدة عشر سنين. قاد الجيش اليوناني ضد غزو الفرس. توفي سنة 480 ق.م.

(*) انظر ما قاله في عظة الجبل مقارناً ما يدعو إليه من أخلاق بتعاليم موسى (إنجيل متى، فصل 5، آية 21 وما بعدها).

فمات أبشع ميتة يخشاها مخلوق. يتناول سقراط السم من يد خادم يبكي، فيباركه. يتلقى عيسى من جلاّديه أفظع أشكال التنكيل، فيدعو بالعفو على أكثرهم قساوة. الحق هو أن سقراط عاش عيشة ومات ميتة حكيم، في حين أن عيسى عاش عيشة ومات ميتة إله[1]. هل نقول إن حكاية الإنجيل مفتراة؟ أهكذا يكون الافتراء؟ أفعال سقراط التي لا يشك في صحتها أحد أقل توثيقاً من أفعال عيسى المسيح. ثم القول بالافتراء يؤخر المشكلة ولا يحلّها. أن يتفقَ رجال كثيرون على اختلاق هذه الحكاية أبعد عن التصديق من أن يكون رجل واحد بطلَها. ما كان لمؤلفين يهود أن يأتوا قط بمثل أسلوب الإنجيل ولا بمثل محتواه الأخلاقي. في صفاته من علامات الصدق السامية البليغة العصية على المحاكاة إلى حدّ أن تعجّبنا من الواصف أكبر من إعجابنا بالموصوف. لكن هذا الإنجيل ذاته، رغم كل ما سبق ذكره، يحتوي على أمور يستحيل تصديقها. يشمئز منها العقل ولا يسع أي إنسان نبيه أن يتمثّلها أو يسلّم بها. ماذا نفعل إزاء هذه المتناقضات؟ نلزم التواضع والحذر. علينا، يا ولدي، أن نقدس في صمت ما لا نستطيع نفيه ولا فهمه، وأن نركع للكائن الأسمى الذي وحده يعلم الحقيقة.

---

(1) ميتة رب أم ميتة ربانية؟ طال النقاش حول هذه العبارة، إذ معناها يحدد نوع عقيدة روسّو.

147 هذا هو الوضع الذي أجد فيه نفسي اليوم، وضع تردد غير مقصود[1]. أتحمّله بدون عناء لأنه لا يؤثر في سلوكي ولأني مطمئن كلياً إلى المبادئ التي تحدد واجباتي. أعبد الرب عبادة رجل ساذج. أحصر معارفي فيما يخص السلوك. أما العقائد التي لا أثر لها في الأفعال والأخلاق، تلك التي تقضّ مضاجع عامة الناس، فإني أهملها بالمرة. أعتبر كل الشرائع القائمة مؤسسات مفيدةً تبيّن لسكان كل بلد كيفية واحدة لتكريم الخالق عبر مراسم عمومية. كل ديانة راجعةٌ إلى الطقس أو شكل الحكم أو ذهنية الجمهور أو إلى سبب محلي آخر غير ظاهر لنا يؤدّي إلى تفضيل هذه الشريعة على غيرها حسب الزمن والمكان[2]. أعتقد أنها كلها صالحةٌ ما دام الخالق يُعبد فيها عبادة تليق بعظمته. المهم هو خشوع القلب. الرب يتقبل دائماً الاحتفال به، إن كان صادقاً، مهما يكن شكله. مهنتي خدمةُ الكنيسة حسب مراسم النحلة التي أنتمي إليها. أقوم بواجبي بكل العناية المطلوبة. يؤنّبني ضميري لو أخللت عمداً بأي جانب من الطقوس المقررة. تعلم أني حُرمت من الخدمة مدة طويلة وأن السيد **ميلارد**، وهو رجل ذو نفوذ، تدخّل لصالحي. فأُذن لي بالعودة إلى الوظيف حتى أستعين به على معاشي. في السابق كنت أقيم القداس لاهياً كما يحصل عادة للمرء عندما يكرر مراتٍ

---

(1) scepticisme involontaire، شك اضطراري، غير مرغوب فيه.

(2) انظر تحليلات مونتسكيو في روح القوانين.

العمل نفسه. لكن بعد أن وقفت على المبادئ التي شرحتها لك، أفعل اليوم ما أفعل وأنا خاشع، متشبّع بجلال الكائن الأعظم، بحلوله، بقصور العقل البشري الذي لا يتمثّل إلا القليل مما يتعلّق بخالقه. لا يغيب أبداً عن ذهني أني أُقدّم للرب نذور أفراد الشعب في صورة مقررة، فألتزم اتّباع كل المناسك بالحرف. أتلو النصوص المقدسة بإمعان، أجتهد حتى لا أنسى لفظاً واحداً ولا أهمل طقساً واحداً. أستحضر ذهني حين أفعل ما أفعل بالهيئة التي تفرضها الكنيسة ويقتضيها مقام التقديس. أحرص على كبح عقلي أمام العقل الأعلى. أقول: من أنت حتى تدّعي معاينة قدرة اللاّمتناهي؟ أنطق خاشعاً بألفاظ الابتهال وأضمّن آثاره كل ما أملك من عمق الإيمان. مهما يكن من أمر هذا السر المختوم[1] لا أخشى لحظةً واحدة أن أُعاتب يوم الحساب على أني دنّسته مرةً في قرارة قلبي.

148 شُرفت بخدمة جليلة وإن في أدنى مرتبة. لن أفعل أبداً ما يجعلني غير جدير بهذه المهمة السامية. سأدعو الناس بلا ملل إلى التحلّي بالفضيلة. سأشجعهم على إتيان الخير، وفي حدود طاقتي أسبقهم إليه. لا أملك أن أحبّب إليهم الدين، ليس في وسعي أن أثبّت إيمانهم بالعقائد النافعة حقاً والواجب على

---

(1) سر الحلول الذي هو عقيدة الكاثوليك. يؤمنون أن أثناء القداس يتحول الخبز بالفعل إلى لحم والخمر إلى دم. معجزة المسيح تتكرر لديهم إذن كل يوم.

كل امرئ التشبث بها. لكن حاشا الرب أن أبثّ فيهم أبداً روح التعصب المقيت، أن أحملهم على بغض إخوانهم في الإنسانية وعلى توعد أي كان بلعنة الخالق(*). لو كنت أحتلّ مرتبة أعلى في الكنيسة لجلب عليّ هذا التسامح متاعب كثيرة، لكن حقارة وضعي تحميني من أي مكروه. لا يمكن أن أكون في حال أسوأ من الذي أنا فيه الآن. مهما يحصل لن أتجنّى أبداً على العدل الإلهي ولن أتجرأ بالكذب في حق روح القدس.

149 طال ما تاقت نفسي إلى شرف الحصول على منصب قس، ولا زلت أتشوق إليه، بدون كبير أمل. عزيزي الطيب، لا وظيف أشرف من عمل القس. القس الصالح صارف برّ كالقاضي الصالح صارف عدل. لا يفعل الشر قط، والخير، إن لم يقم به مباشرة، فإنه يدعو إليه بدون ملل. وقلّ ما يخيب مسعاه إن عرف كيف يكسب احترام الناس. كم يكون سروري كبيراً لو كلفت بخدمة جماعة من السكان الطيبين في إحدى مناطقنا الجبلية. لن أجلب إليهم الغنى، سأكون فقيراً مثلهم، لكن سأنزع

(*) من واجبات المرء أن يَتّبع ويحب دين وطنه. لكن ليس من واجبه التقيد بتعاليم مناقضة للأخلاق مثل التعصب. هذا المعتقد البغيض هو الذي يحرّض الناس بعضهم على بعض ويجعل من الجميع أعداءً للجنس البشري. يرى فريق أن التسامح المدني غير التسامح الديني، هذا تمييز صبياني وغير نافع. لا ينفصل الواحد عن الآخر ولا يُقبل هذا دون ذاك. الملائكة أنفسهم لا يتعايشون بسلام مع من يعتبرونهم أعداءً للربّ.

عن فاقتهم وصمة العار والدناءة التي هي أثقل على النفس من الخصاص. سأنشر بينهم حب التآخي والمساواة، الأمر الذي غالباً ما يُسقط البؤس أو على الأقل يخفف من وطأته. بعد أن يلاحظوا أني لست أحسن حالاً منهم في أي شيء ومع ذلك لست ساخطاً على حظي، سيعرفون كيف يواسون أنفسهم ويعيشون مثلي راضين على قسمتهم. في التعليمات التي أروّجها بينهم لن أتقيد بروح الكنيسة بقدر ما أستوحي روح الإنجيل، حيث أفعال الطاعة نادرة وأعمال الإحسان كثيرة. قبل أن أدعوهم إلى فعلٍ أقوم به بكل ما أستطيع من قوة حتى يقتنعوا أني أؤمن حقاً بما أقوله لهم. إن جاورني بعض البروتستانت، أو سكنوا في حدود دائرتي، عاملتهم كما لو كانوا ضمن رعيتي في كل ما يتعلّق بالبر حسب مفهومه المسيحي. أحمل الجميع على التوادد والتآزر، على احترام كل الشرائع والعيش في سلام كل حسب تعاليم نحلته. أظن أن من يستدرج غيره إلى مفارقة العقيدة التي نشأ فيها يدعوه إلى ارتكاب الشر، بل هو نفسه يرتكب الشر. حتى نعلم أكثر مما نعلم الآن، علينا أن نحافظ قبل كل شيء على الأمن العام. أياً كان البلد الذي نسكنه، أول ما يجب علينا هو الخضوع لقوانينه وعدم التشويش على الشعائر المقررة في ربوعه. لا ندعو أحداً إلى العصيان إذ لا نعلم يقيناً هل هو خير له أن يستبدل عقيدته بعقيدة غيره، في حين أننا نعلم قطعاً أن مخالفة القانون شر خالص.

150 ولدي العزيز، ها أنذا قد تلوت عليك بلساني ما يقرأه الرب مباشرة في قلبي. أنت أول من يسمع عقيدتي ولا أظن أن أحداً غيرَك يسمعها بعدك. طالما بقي ركن من الإيمان الصحيح قائماً بين الناس يجب الإحجام عن زعزعة أمن النفوس أو بث الريبة في إيمان البسطاء بإيراد إشكالات لا يستطيعون التغلب عليها والتي تقلق بالهم من دون أن تنير عقولهم. لكن بعد أن تكون قد تهاوت دعائم الإيمان يجب الاستغناء عن الفروع حفاظاً على الأصل. الضمائر المريضة الحائرة وربما الميتة، التي توجد في وضع مماثل لما أنت فيه، تحتاج إلى دعم وتنبيه، لا بد أن تسلب من تحتها تلك الأعمدة العائمة التي تتوهم أنها تستند إليها.

151 أنت الآن في مرحلة دقيقة من حياتك، مرحلة يَنفتح فيها الذهن إلى اليقين ويتخذ الفؤادُ شكله ونعته، فيختار المرء الطريق الذي سيسير فيه إلى الخاتمة، طريقَ الخير أو طريق الشر. بعد تلك المرحلة تتحجّر الطينة ولم يعد ينطبع فيها أي جديد. تقبّلْ إذن، يا ولدي، في نفسك المطواعة طابع الحق. لو كنتُ أكثر ثقة بنفسي لخاطبتُك بلغة الآمر الناهي. لكني إنسان جاهل معرض للخطأ، فماذا كان عليّ أن أفعل معك؟ كشفت لك ما في قلبي بدون تحفّظ، الصحيح في نظري صوّرتُه لك صحيحاً، والمريب مريباً. آرائي الخاصة قدّمتها لك كاجتهادات. شرحت لك أسباب الشك ودواعي الإيمان. فعليك

الآن أن تتخذ القرار النهائي. لاحظت أنك تميل إلى التأني، فهذا سلوك حكيم منك يبشّر بالخير. قبل كل شيء عليك أن تستعد نفسانياً لهداية ربك. كن دائماً صادقاً مع نفسك. خذ من توجيهاتي ما أقنعك ودع الباقي. لم تفسدك بعد الرذائل، فلا أخاف عليك أن تختار سبيل الشر. كنتُ أعرض عليك أن نتشاور في هذه المسائل لولا أن المناقشة كثيراً ما تتحول إلى نزاع. يتسرّب إلى النفس الغرور والتعنّت، فتسوء النيّة. أنصحُك، ولدي العزيز، بأن لا تجادل أحداً قط. لا علمَ أبداً يُكسب أو يُلقّن بالجدل. فيما يخصّني مرّت عليّ أعوام من التأمل والتمحيص قبل أن أصل إلى قرار. أتشبّث به، ضميري مرتاح وفؤادي مطمئن للحقيقة. لو أردت أن أعيد فيه النظر وأعاود البحث لفعلت ذلك بالتصميم نفسه وبالتعطش نفسه إلى الحقيقة، لكن بما أن قوى عقلي قد تراجعت فسأكون أكثر عجزاً عن إدراكها. ألازم إذن موقعي حتى لا يترسّخ في نفسي يوماً بعد يوم حب التأمل، فيصبح هوايةَ عاطلٍ تلهيني عن أداء واجباتي، وكذلك حتى لا أسقط مجدداً في شكوكي السابقة من دون أن تكون لي القوة الكافية للتخلص منها. مرّ الآن من عمري النصف أو أكثر، فحان الوقت لأستفيد من السنوات المتبقّية وأكفّر بالفضائل عن زلاّتي الفارطة. إن أخطأت فرغماً عني، والرب الذي يقرأ في قلبي يعلم أني غير راضٍ عما أنا فيه من تيه. نور عقلي عاجز عن هدايتي، ووسيلتي الوحيدة للخلاص هي أن أحيا حياة فاضلة. إن كان الخالق قادراً على أن

يهب من الأحجار ذريةً لإبراهيم[1]، جاز لكل إنسان أن يأمل أن يباغته النورُ متى أصبح جديراً به.

152 إن أدّت بك تأملاتي هذه إلى الأفكار نفسها والمشاعر نفسها التي عرضتها عليك، إن اتّحدت في الختام عقيدتك مع عقيدتي، فها نصيحتي إليك: لا تترك البؤس واليأس يتحكمان في مصيرك. لا تبقَ في كفالة الغير، إنه أمر مُشين، وتحرر من ذل العيش من الصدقات. عُد إلى وطنك وإلى ديانة أجدادك. التزم بها في قرارة قلبك ولا تفارقها أبداً. أراها في غاية البساطة وفي غاية القداسة. بين كل شرائع الأرض إنها الأرقى أخلاقاً والأقرب إلى العقل. ولا تهتم بتكاليف السفر، سأمدّك بما يلزم. لا تتردد في هذا الأمر خجلاً من أن تعود إلى وطنك خائباً مدحوراً. يجب الخجل من الخطيئة لا من التكفير عنها. أنت الآن في سن تغفر لك فيه كل زلّة أقلعت عنها، لكن إن عدت إليها عوقبتَ بدون رحمة. لما تقرر أن تنصت إلى صوت ضميرك، سترى بأية سهولة سيزيل ذلك الصوت الحواجز العديدة التي تتوهمها أمامك. ستدرك أنه، في ظروف الريبة التي نعيش فيها، من الغرور الذي لا يغتفر أن نعتنق ديناً غير الذي نشأنا فيه، وأننا نخون العهد إن لم نلتزم صادقين بالشريعة التي ندين بها. إن أخطأنا طريق الحق، أي عذر لنا يوم الحساب؟ من ضلّ بعقيدةٍ

(1) «وأجعل نسلك كتراب الأرض حتى إن أمكن أحداً أن يحصي تراب الأرض فنسلُك أيضاً يُحصى.» **التوراة**، سفر التكوين [14 : 13].

وُلد فيها أجدر بالعفو ممن تجرأ على اختيار عقيدة باطلة[1].

153 املأ قلبك باستمرار، يا ولدي، بالشوق إلى الرب، فلن يخامرك أبداً الشك في وجوده. تذكّر، فوق هذا ومهما يكن الرأي الذي تنحاز إليه في النهاية، أن الواجبات الصحيحة التي يفرضها الدين مستقلةٌ عن المؤسسات البشرية، أن القلب الصادق هو معبد الرب الحقيقي، أن عصارة الشريعة، في كل بلد وفي كل ملة، هي أن تحب الخالق فوق كل مخلوق، وأن تحب أخاك كما تحب نفسك، وأن الدين لا يعفي في أي حال من واجبات الأخلاق، أن هذه هي أهم ما في الأمر كله، أن العبادة بالقلب هي أول تلك الواجبات، وأن لا فضيلة حقة أبداً دون إيمان.

154 ابتعدْ عمن يدّعون أنهم يعلمون أسرار الكون، وباسم ذلك العلم الزائف يبثّون في قلوب الناس اليأس والتشاؤم. هؤلاء الأشخاص يدعون إلى الشك بصيغة مائة مرة أكثر تصلباً وحدّة من أسلوب خصومهم. يؤكدون بوقاحة أنهم وحدهم أصحاب علم وصدق وحسن نيّة. فيرومون إجبارنا على قبول أحكامهم التعسّفية. يزعمون أنهم اكتشفوا المبادئ الصحيحة للكائنات، ثم يعرضون علينا ما تخيّلوه من نظريات مبهمة لا تكاد تُفهم. علاوة على هذا، بعد التخريب المنهجي، التدمير والتحقير لكل ما

(1) قد يبدو أن هنا تناقضاً مع ما سبق. يأتي التوضيح في المقطع التالي. نفى روسّو في مناسبات كثيرة أن يكون من دعاة التقية.

يقدّسه الإنسان، ينزعون من أيدي المحرومين ما يواسون به بؤسهم ومن قلب الأقوياء والأغنياء ما يكبح شهواتهم. بعملهم هذا يمّحي من أفئدة الخلق الندم على الجريمة والرجاء في جزاء الفضيلة. ورغم هذا يعتزّون بأنهم يُحسنون إلى النوع البشري. شعارهم الدائم: الحقيقة لا تضرّ أبداً. أنا أيضاً أقول بهذا المبدأ، وعلى أساسه أقرر أن تعليمهم باطل كله[1](*).

---

(1) بما أن الفلسفة ضارة اجتماعياً، فهي مضلّة وضالّة. يحكم عليها روسّو من منظور المصلحة الاجتماعية، ويقصد إذن بالكلمة الايديولوجيا المادية.

(*) يتراشق الفريقان [الفلاسفة وخصومهم] بتمويهات لا تعدّ. لن نتجرأ على إحصائها كلها، بل نكتفي، ونستحق التهنئة على ما نفعل، بتسجيل بعضها كلما سنحت لنا. من أكثرها ذيوعاً مقابلة أمة الفلاسفة الأبرار بأمة المسيحيين الأشرار، كما لو كان تأسيس مجتمع من فلاسفة أوفياء أقل صعوبة من إنشاء مجتمع كل أعضائه مسيحيون أتقياء. على مستوى الأفراد لا أدري هل العثور على أولئك أيسر من اكتشاف هؤلاء، لكنني أعلم جيداً أنه إذا تعلق الأمر بالمجتمعات سنجد لا محالة أن البعض سيستغلون بإسراف فلسفة خالية من كل دين كما يستغل بإسراف أصحابنا اليوم ديناً خالياً من كل فلسفة. وهذا الأمر، في نظري، يغيّر جوانب كثيرة من المسألة.

قرّر بيير بايل[2] أن التعصب الديني أكثر ضرراً على المجتمع من الإلحاد. هذه حقيقة لا نزاع فيها، إلا أن قائلها أغفل حقيقة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي أن التعصب، وإن أدّى إلى القسوة وسفك الدماء، يظل عاطفة سامية وقوية تجعل الإنسان يتطلّع إلى الرفعة، يحتقر الموت ويكسب همّة عالية تؤدي، إن وُجهت وجهةً حسنة، إلى أسمى الفضائل. أما الزندقة، وبصفة عامة ذهنية النظّار والفلاسفة، فانها تجعل المرء أكثر تعلّقاً بالحياة الدنيا، أقل مروءة، أميل إلى الدناءة، مهتماً فقط بمصلحته الخسيسة وأنانيته =

---

(2) Pierre Bayle (1647-1706), Dictionnaire historique et critique, 1697.

= المنحطّة. فيقوّض من الأساس دعائم كل مجتمع إذ ما يجمع بين مصالح الأشخاص قليل جداً ولا يعادل أبداً ما يباعد بينها.

إن صح فعلاً أن الملحدين لا يريقون دم البشر، فليس ذلك تعلّقاً بالسلم بل نفوراً من فعل الخير. لا يهم مدّعي الحكمة تدبير شؤون الناس ما دام هو قابعاً في مكتبه لا يقلق باله شيء. مبادئه لا تؤدي إلى تهالك البشر بل إلى انقراضهم بحذف أسباب نموهم، بإبعادهم عن جنسهم، باختزال كل العواطف في أنانية خفية منافية للحياة وللفضيلة معاً. لامبالاةُ الفلاسفة تشبه الهدوء السائد في دولة الطاغية، هدوء الموت الذي هو أكثر فتكاً بالإنسان من الاقتتال.
وهكذا إن كان التعصب الديني، مقارنةً مع ما يُعرف حالياً بالفكر الفلسفي، أكثرَ ضرراً في الحال، فإنه، على المدى الطويل، أقل شؤماً على المجتمع. بجانب هذا، ما أسهل تسويد الصحائف بالتعاليم السامية، الصعوبة هي في أن يتحقق المرء أنها بالفعل ناتجة عن مقدمات المذهب، متولدة عنها بالضرورة. وهذا ما لم يتأكد لأحد إلى الآن. ثم هل الفلسفة، إن قُدّر لها أن تسيطر على العقول وتتربع على كرسي الحكم، تستطيع أن تقمع المصلحة، الطموح، الشهوات البشرية الدنيئة؟ هل تسير فعلاً على هدى العاطفة الإنسانية الودودة التي تفتخر بها عندما تمسك بالقلم؟
على مستوى المبادئ، لا تفعل الفلسفة خيراً إلا ويستطيع الدين أن يفعل خيراً أكبر منه، فيما الدين يقوم بأعمال برّ تعجز الفلسفة عن إنجازها.
على مستوى الواقع الأمر مختلف. لكن المسألة تستحق مزيداً من البحث. لا يوجد إنسان متدين يطبق في حياته كل ما يأمره به دينه. هذا صحيح. أغلب الناس لا دين لهم أو لا يطبّقون تعاليم الدين الذي ينتمون إليه. هذا صحيح أيضاً. لكن يوجد بين الناس متدينون، أوفياء ولو جزئياً لتعاليم دينهم. لا نزاع في أن واعز الدين يقيهم من الشرّ ويحملهم على فعل بعض الخير، على إنجاز أعمال تستحق الثناء ما كانوا يُقبلون عليها لولا الواعز الديني.
إن رفض راهب ردّ وديعة لديه، ماذا نستخلص من الحادث سوى أن المستودِع عبيط؟ لو فعل الأمر نفسه باسكال لقلنا انه منافق وأعرضنا عن المسألة. لكن الفاعل راهب! [ثم ماذا؟] هل من يستغل الدين ديّن حقاً؟ =

= الجرائم التي يرتكبها أصحاب الدين، كما يرتكبها غيرهم، لا تعني بالضرورة أن الدين غير نافع بقدر ما تعني أن القليل من الناس متديّنون.

لا جدال في أن سلطة الحكومات الحديثة في أوروبا تقوّت وقلّت حوادث العصيان بسبب آثار المسيحية في نفوس المحكومين. كما عادت الحكومات ذاتها أقل تعطّشاً لسفك الدماء للسبب نفسه. الأمر واضح بالمقارنة مع حكومات التاريخ القديم.

إلمامٌ أوسع بروح التعاليم أبعد النصارى عن التعصب وجعل أخلاقهم أكثر ليونة وتعاطفاً. ولا دور في هذا التطور لازدهار الأدب، إذ أينما حصل ذلك لم تحترم حقوق البشر. الشاهد على ما نقول قساوة الأثينيين والمصريين القدامى وأباطرة روما والصينيين، إلخ. كم من أفعال الرحمة نتجت عن تعاليم الإنجيل! وعادة الاعتراف عند الكاثوليك كم من أملاك مغتصبة ساعدت على ردّها إلى أصحابها، وكم من ضيم تسبّبت في تعويضه! وعندنا[1]، كلما أطل موسم تناول القربان كم من تصالح يتمّ بين الأعداء، وكم من صدقات توزع على المعوزين! وعادة اليوبيل[2] عند العبرانيين كم قلّلت من شجع الغاصبين وكم وَقَتْ من مصائب! أثناء تلك الفترة كانت المؤاخاة الشرعية توحّد الأمة حتى لم يعد يُرى فيها متسوّل. كما لا يرى متسول عند الأتراك حيث تكثر المؤسسات الخيرية. الضيافة عندهم واجبة حتى في حق من ليس من ملّتهم.

يقول شاردن[3] إن المسلمين يعتقدون أن جسراً يسمّى البرزخ سيقام يوم القيامة فوق نار جهنم، وأثناء الحشر يجب على الجميع أن يجتازوه. يمثل عندهم المحنة الثالثة والأخيرة وبها يختم الحساب ويتم فرز الأبرار عن الأشرار، إلخ.

=

(1) أي البروتستانت.

(2) «قدسوا سنة الخمسين ونادوا بإعتاق في الأرض لجميع أهلها، فتكون لكم يوبيلاً. فترجعوا كل واحد إلى ملكه وتعودوا كل واحد إلى عشيرته.» التوراة، سفر الأحبار (25:8-17).

(3) Jean Chardin (1643-1713), Voyage en Perse et aux Indes orientales, 1711.

155 أيها الشاب الطيب، عليك دائماً بالإخلاص والصدق والتواضع. إن جهلت شيئاً، اعترف بجهلك، فلن تخدع أحداً ولن تنخدع بأحد. إن نمت مواهبك وأصبحت جديراً بمخاطبة الجمهور، كلّم الناس بما تكنّه في ضميرك ولا تأبه إن صفّقوا لك أو لا. كثرةُ العلم تؤدّي إلى رقة الإيمان. العالم يزدري

= يتابع شاردن كلامه قائلاً: إن الفرس يؤمنون إيماناً قوياً بهذا الجسر. عندما يلحق أحدهم ضيمٌ ولا يجد أية وسيلة لرفعه، آخر ما يلجأ إليه هو أن يصيح في وجه ظالمه: باللّه الحي القيوم، ستؤدي لي ضعف ما أخذت مني، لن تمرّ من البرزخ حتى تردّ لي حقي، سأتعلّق بأهدابك، سأرتمي على رجليك! رأيت رجالاً كثيرين من الخاصة ومن العامة يخشون أن يسمعوا، عند اجتياز الجسر، صيحة قف. فيستعطفون كل من كانت له عليهم دعوى حتى يسامحهم. حصل لي ذلك مراراً. ألحّ عليّ بعض الوجهاء حتى قمت بمساع كنت لها كارهاً، تركوا عدة أيام تمرّ، ظنوا أن غمّي قد خفّ، فاعترضوا طريقي قائلين: رجاءً **حلال بكون انتشفرا**، معناها أجعل القضية حلالاً أو عادلة. بل قدّم لي بعضهم هدية أو أسدوا لي جميلاً لكي أتنازل وأعفو معلناً على رأس الملأ أني أفعل ذلك عن طيب خاطر. والسببُ هو إيمانهم أن لا أحد يجتاز البرزخ ناجياً من السعير إن لم يردّ لصاحبه آخر رُبع أخذ بدون حق [ج 7 ص 50].
كيف لي أن لا أعتقد أن الإيمان بهذا الجسر الذي يجبُر كثيراً من الأضرار لا يقي أبداً من حدوث بعضها؟ لو نُزعت هذه العقيدة من أفئدة الفرس، بإقناعهم أن لا وجود لشيء اسمه البرزخ أو ما يماثله، حيث يُنتقم للمظلومين من ظالميهم بعد الممات، أليس واضحاً أن الأمر يخفف العبء على الغاصبين ويعفيهم من الانشغال باسترضاء ضحاياهم الأشقياء؟ غير صحيح إذن أن مذهب الفلاسفة غير ضارّ، وبالتالي أجزم أنه لا يمثل الحقيقة.
أيها الفيلسوف، مبادئك الأخلاقية جدّ جميلة، لكن بيّن لي من فضلك ما هو جزاء الأفعال؟ كفى لفاً ودوراناً، قل لي بصراحة بماذا تعوّض البرزخ؟

مشاعر العامة ويودّ لو يتميّز بنزعة خاصة به. الفلسفة المغترّة بتفوّقها تقود إلى التعصب. تجنّبْ كل مغالاة والزم دائماً سبيل الحق أو ما بدا لك حقاً على الفور. لا تتنكّر أبداً للحق عن غرور أو تخاذل. اصدع بإيمانك في جموع الفلاسفة وبين المتزمّتين ادعُ إلى التسامح. قد لا يؤازرك أحدٌ، لكن رضاك على نفسك يعفيك من استجداء رضى الآخرين. أأحبّوك أم مقتوك، أقرأوا ما تكتب أم أهملوه، لا تلتفت إليهم. قل الحق وافعل الخير، المهم هو أن تقوم بواجبك ما دمت تدرج على وجه الأرض. من يخدم غيره هو الذي يخدم لنفسه حقاً. يا ولدي، المصلحة الشخصية مُضِلّة، ما لا يضلّ أبداً هو رجاء الإنسان العادل.

آمين[1].

---

(1) هذه الكلمة محذوفة في بعض الطبعات. تؤكد أن النص عظةٌ جبلية، موجّهة لشاب يبعثه القس لتنوير عقول العامة وتخليصها من شبهات الفلاسفة وأوهام الكنائس، حتى لا تنهار الأخلاق (الأصل) مع تناسي طقوس الدين (الفروع).

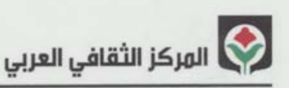
جان ـ جاك روسو

دين الفطرة

لم أختر اعتباطاً النص الذي يحمل في الأصل عنوان **عقيدة قس من جبال السافوا** لنقله إلى اللغة العربية. يخضع هذا الإختيار لخطّةٍ نقدية ذكرتها في مناسبات عدّة. سبق لي أن قلت إن الفكر الغربي لم يقترب من تمثّل الفكر الإسلامي إلا مرة واحدة، وذلك أواسط القرن الثامن عشر الميلادي. قبل ذلك التاريخ كان الحاجزُ المعتقدَ الديني وبعده كان المانع سدَّ الاستعمار.

ما الفائدة إذن لنا، قرّاء العربية، من نقل نص جان – جاك روسو؟ المفيد بالنسبة لنا هو القيام بتجربة ذهنية معيّنة تساعدنا في آن على فهم كتاب روسو وكتابات إسلامية شبيهة به.

فيرسم روسو لنفسه هنا، عقيدةً بسيطة، بيّنة، صادقة، توفق بين العقل والوجدان، تضمن للفرد الطمأنينة وللمجتمع الوحدة والاستقرار.



الدار البيضاء:ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت:ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com


ISBN 978-9953-68-535-5